الغربة والحنين
فى
شعر أبي الفضل بن الوليد

إعـداد
د/ السيد على السيد كفافي
مدرس الأدب والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببني سويف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

?لمقـــــــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ... ،

فهذا بحث أدبي موضوعه " الغربة والحنين في شعر أبي الفضل بن الوليد " وما زال شعر الغربة يفيض بالكثير من الإشعاعات الإبداعية التي لا تتوافر في بقية الفنون الشعرية؛ وذلك لما يحمل في داخله من تجارب صادقة، وإحساس مرهف، وعاطفة قوية تفيض – في أغلب الأحيان – بالألم والحزن والوله والوجد، والتقلبات النفسية التي لا يعرف من خلالها سكينةً أو طمأنينةً.

والحقيقة أنّ أعمال الشاعر الشعرية – وبخاصة ديوانه الذي يحمل عنوان " ديوان أبي الفضل بن الوليد " تحمل في طياتها فنوناً متعددة من فنون الشعر العربي أبرزها " شعر الغربة والحنين "، ثم شعر الطبيعة، وشعر الغزل، والمطولات الشعرية، كما يحمل أيضاً جانباً اجتماعياً وتياراً تاريخياً ".

فشعره متنوع الموضوعات، فقد قرأته عدة مرات فوجدته يتسم بالصدق الفني، والعاطفة الجياشة، وأسلوبه يتسم بالسبك، وكثرة المادة؛ لذا آثرت أن يكون موضوع البحث " الغربة والحنين في شعر أبي الفضل بن الوليد "، ولا أدَّعى أنه يمثل عند الشاعر أكثر نتاجه الشعري، ولكنه يفيض باللوعة والألم، وقد عبَّر الشاعر عنهما، وصورهما في قالب شعري كشف من خلاله عن معاناته، وأرانا من خلاله خفقان قلبه، وجيشان نفسه وحيرته، مستخدماً في ذلك الأساليب العربية التي ساعدته على إبراز تجربته الشعرية، التي تُحِّرك نفس وقلب كُلِّ مَنْ يقرأ شعر الغربة والحنين عنده، وقد دفعني إلى دراسة هذا الموضوع عند الشاعر؛ مايثيره في جدان القارئ والسامع على السواء، وما يحفل به من جلاء موضوعي.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة وتمهيد وفصلين، وخاتمة وبعض الفهارس الفنية.

أمَّا **المقدمة** فقد بِّينت فيها سبب اختياري للبحث والخطة التي سرت عليها فيه.

وأمَّا **التمهيد** ففيه مبحثان:

المبحث الأول: وجعلته بعنوان " أبي الفضل بن الوليد حياته وآثاره " وتحدَّثت فيه عن مولد الشاعر ونشأته، وتعليمه، وأعماله الأدبية، وهجرته وإسلامه، وعودته ووفاته.

والمبحث الثاني: وجعلته بعنوان " مفهوم الغربة والحنين ودواعيها "، وتحدثت فيه عن مفهوم الغربة والحنين في عرف علماء اللغة، ثم أصَّلتُ للغربة والحنين في القديم، ثم تحدثت عن الأسباب والدواعي التي حدت بالشعراء إلى هجرة أوطانهم بصفة عامة وشاعرنا بصفة خاصة.

أمَّا الفصل الأول: فقد جعلته بعنوان " الغربة والحنين في شعر أبي الفضل بن الوليد " وقسَّمته إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: وجعلته بعنوان " الغربة المكانية أو الوطنية وملامحها عند الشاعر "

المبحث الثاني: وجعلته بعنوان " الغربة النفسية وأهم ملامحها ".

المبحث الثالث: وجعلته بعنوان " الحنين وملامحه في شعر أبي الفضل بن الوليد ".

أمَّا الفصل الثاني: فقد خصَّصْتُه للدراسة الفنية في شعر الغربة والحنين عند الشاعر وقسمته إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: وجعلته بعنوان " الصورة الشعرية – والظواهر الأسلوبية ".

المبحث الثاني: وجعلته بعنوان " الموسيقى الداخلية والخارجية ".

المبحث الثالث: وجعلته بعنوان " القافية – والمعجم اللغوي لشعر الغربة والحنين ".

أمَّا الخاتمة فقد رصدت فيها أهم نتائج البحث.

وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت وإليه أُنيب

تمهيد

?لمبحث ?لأ? ?: ?بو ?لفضل بن ?لوليد " حياته ??ثا?? "

??لا: مولد? ?نشأته.

ولد الشاعر في أوائل آب سنة ١٨٨٩م، في قرية " قرنة الحمراء "[(١)] في بيت مشيد يتمتع بالحسب والنسب والمكانة الرفيعة في المجتمع، وحسن السيرة والسمعة الحسنة، كما تمتع هذا البيت بالثراء، وكان مرجعاً للناس ترجع إليه في حلِّ المعضلات، وفي هذه البيئة عريقة الحسب والنسب ولد ونشأ شاعرنا يرفل في بحبوحة من الوجاهة ورغد من العيش.

وفي " قرنة الحمراء " قريته الجميلة الرافلة بالأمن والأمان والطمأنينة بدأ الشاعر يتلمس مباهج الحياة ومفاتن الطبيعة [(2)]، لذا نجد شعره حافلاً بمشاهد متعددة منها ينقلها إلينا عبر لوحاته الشعرية، بل أفرد قصائد في دواوينه خصها بالحديث عن الطبيعة، فكانت له وقفات كثيرة معها، فكأنه يناجيها وتناجيه بكل ما تحمل في طياتها من ألوان وظلال، ولذا نجده يناجي القمر قائلاً:

هَذا مَليكُ القُبَّةِ الزرقـــاءِ   يَنْضُو نِقابَ الليلةِ الورْقَـــاءِ

وعندما يصل إلى بدر يناديه:

يا بَدْرُ ما أَبْهاكَ في كَدَرِي،وَمَا   أَشْهَاكَ في سَمَري مع الحسْنَاءِ

ثم نجده يصف كآبة الشتاء قائلاً:

تلكَ الخمائِلُ عُرِّيَت أشجارُها   يَبِسَتْ وليسَ بمُمْكِنٍ إِنْضَارُها

ثم يتغنى بجمال الصيف قائلاً:

---

(١) – "قرنة الحمراء" قرية تقع في شمال لبنان يطلُّ عليها جبل "صنين"الذي يبلغ ارتفاعه إلى ٢٦٢٨ متراً .

انظر: معالم جغرافية الوطن العربي د محمد محمود الصيَّاد ج١ ص١١٣ ط دار النهضة العربية بيروت.

(2) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٧ بتصرف ط دار الثقافة بيروت سنة ١٩٨١ م.

قَدْ أَبْهَجَتْكَ بنورِها وصِبَاهَا أَيَّامُ صَيْفٍ لاَ يَطِيبُ سِوَاها

وهذا نذر من كثير في ديوان الشاعر.

– وفي حداثة سنة بدأت تختمر فيه معطيات الإبداع، وبدأ يختزن معاني المرئيات فأحسَّ قبل أن يتعلم، وأدرك قبل أن يقرأ، وأراد قبل أن يقدر، فإذا هو يتهافت على المعرفة تهافت الجائع على المائدة الشهية، بل تهافت الحبيب على الحبيب (١).

ثانياً: تعليمه:

دخل الشاعر مدرسة قريته وهو في السادسة من عمره فأكب على الحروف يطبع أشكالها في ذهنه، ويجتهد في إجادة ألفاظها، وما هي إلاَّ عدة أسابيع حتى بدأ يقرأ، فلمع ذكاؤه المتوقد، وظهرت فيه معالم الفطنة والتفوق .

وفي أقل من عامين تمكن من العربية، وألَمَّ بالفرنسية، وظهر ميله إلى الشعر فنظم منه بضعة أبيات على السليقة من قبل أن يعرف العروض ونظم الكلام الموزون المقفى،بما في نفسه من الحس المرهف، ومن القدرة على التعبير الجميل.

وفي عام ١٨٩٩م أرسله والده إلى معهد " عينطورة "، هذا المعهد الذي لا يدخله إلاَّ أبناء الوجهاء والأثرياء والأعيان، فما أحس الشاعر وهو دون العاشرة من العمر بوطأة الاغتراب ولا تأثر بقسوة الحياة بعيداً عن البيت المترف والأم الرؤوم؛ لانصرافه الكلي إلى الدرس والتحصيل.

وفي صيف ١٩٠٣م تحوَّل من معهد " عنيطورة "، إلى مدرسة " الحكمة " ببيروت، وذلك لأنَّ المعهد لم يكن يعني فيه باللغة العربية العناية الكافية، وكان شاعرنا كلفاً بهذه اللغة حتى الهيام يقدس ألفاظها، وينتشي ببيانها، ويهتدي إلى مواطن الجمال فيها ببراعة ومهارة الخبير الذواقة (٢).

(١) – انظر الديوان ص ١٨–٢١ بتصرف.

(٢) انظر الديوان، ص ١٨ – ٢١.

قضى الشاعر عامين في مدرسة الحكمة في بيروت ثم عاد أدراجه مرة ثانية إلى قريته " قرنة الحمراء " في صيف ١٩٠٥م، وهو مكتمل العدة متألق الشخصية، تتجلى فيه حكمة الشيوخ الذين عركهم الزمن على الرغم أنه لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره.

وقد عُرض عليه منصب في الحكومة فامتنع وأبت نفسه الحرة قيود الحرفة وأصفاد الوظيفة وانصرف كلياً إلى الأدب والنتاج الذي لا يموت(١).

ثالثا: ?عماله ?لأ?بية.

بعد هذه الرحلة الطويلة في ظلال العلم والمعرفة، وبعد هذه المطالعات المتنوعة في شتى ألوان المعرفة عكف الشاعر على التصنيف والتعريب ثلاث سنوات أنتج فيها ثلاث روايات مقتبسة من تاريخ العرب الذي أغرم به أيَّما إغرام، كلٌ منها تتكون من خمسة فصول وهي على الترتيب " أسرار بغداد، ونكبة البرامكة، وأحمد وولاَّدة ".

ثم عَرَّب نظماً " البحيرة " للامرتين و " الليالي " لالفرد دي موسيه، وقسماً من " الكوميديا الإلهية " لدانتي، وفي خليط من النظم والنثر ترجم " آخر بني سراج " لشانويريان وثلاث تمثيليات لالفرد دي موسيه هي " أحلام العذارى " " الحب آخره قتل " " بعثاه خاطباً فتزوَّج"(٢).

- وفي عام ١٩١٥م أصدر ديوانه " الغربيات " وديوانه " أغاريد وعواصف".
- وفي عام ١٩١٧م أصدر ديوانه " الأنفاس الملتهبة ".
- وفي عام ١٩٢١ م أصدر ديوانه " نفحات الصور " فضلاً عن أربعة كتب هي " أحاديث المجد والوجد "، " والقضيتين "، "والمآلك "، وكتاب " التسريح والتصريح ".

---

(١)- السابق، ص ٤٣ بتصرف.

(٢)- انظر الديوان ص ٦٥.

- وفي عام ١٩٢٦م طبع رواية " زوال الحب والملك ".
- وفي عام ١٩٢٩م أخرج ديوانه " رياحين الأرواح ".
- وفي عام ١٩٣١م أخرج منغمة " غافر ولبانة ".
- وفي عام ١٩٣١م أخرج قصائده " السباعيات ".(١)

وهذا النتاج الكبير يدلنا على عمق الفكر، وكثرة المطالعات، وغزارة المادة، وتنوع الموضوعات وتمكن الأديب من أدواته الفنية، وتطويع اللغة بكل ما تحمل من ألفاظ وأساليب لخدمة فنه الأدبي بصفة عامة وفنه الشعري بصفة خاصة.

⁇بعا: هجرته -?سلامه - عو?ته.

هجرته

بدأ الشاعر رحلته إلى العالم الآخر – المهجر – فأبحر من بيروت في أوساط نيسان ١٩٠٨م، فمرَّ سائحاً بمصر، ثم بإيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال، ثم توجه إلى الأرجنتين فمكث فيها عامين، ثم انتقل منها إلى " الارغواي " ثم انتقل منها إلى " البرازيل " فاستقر فيها اثنتي عشرة سنة، وكان مسكنه في عاصمتها " ريودي جانيرو " وفيها بدأ ينشر مقالاته منذ عام ١٩١١م وقصائده في صحف البرازيل العربية فطارت شهرته، وفي عام ١٩١٣م أصدر جريدة " الحمراء " تيمناً باسم قريته " قرنة الحمراء " وحمراء غرناطة الأندلسية، فكان لها شأن كبير.

- عزم الشاعر على العودة إلى وطنه في عام ١٩١٤م إلاَّ أن الحرب العالمية الأولى حالت دون تحقيق غايته.
- تألم لما أصاب لبنان من ويلات الحروب، وأهوال المجاعة والتشريد والدمار، فأرسل من غربته صيحات مدوية كانت لها أصداؤها البعيدة، وكان صوته خير منادٍ بحقوق أمته الشهيدة.

---

(١) – انظر ديوان الشاعر – انظر معجم الأعلام للزركلي – انظر أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية.

?سلامه:

ظل الشاعر على المسيحية حتى عام ١٩١٦ م، وفي تشرين من نفس العام اعتنق الإسلام واتخذ اسم " الوليد " وكنيته " أبي الفضل " ودونهما في السجلات الحكومية البرازيلية اسمين شرعيين يعرف ويعامل بهما.

عو?ته من ?لمهجر ??فاته.

ركب أبو الفضل بن الوليد عائداً من مهجره في البرازيل في نيسان ١٩٢٢م إلى الوطن الأم وطوَّف بعد عودته ببعض البلاد العربية، ثم عاد واستقر به المقام في قريته " قرنة الحمراء " فيما يشبه الاعتكاف منصرفاً إلى التأمل والتفكير ومحاطاً بها له من محبة أهله وإعجاب مقدري فضله حتى وافاه الأجل بين أهله وعشيرته في أواخر نيسان ١٩٤١م، وإن آخر ما تلفظ به بيتين من الشعر هما:

على عُمْرَانِها الدُنيا خَرابُ   ومع قَمــــرِيِّها يَنْعِى الغُرابُ
فدَعْهَا غيرَ مأ سُوفٍ عَلَيْها   فَأَوَّلهُـا وآخِرِهـا خَـــرَابُ (١)

(١) – انظر الديوان ص ٧٠ بتصرف ،أدبناوأدباؤنا في المهاجر الأمريكية ج ٢ ص ٤٨٩ – ٤٩٥ جورج صيدح.

?لمبحث ?لثا ?

مفهو ??لغربة ??لحنين ????عيها

١ – **الغَرْبُ**: الذهاب والتَّنَحِي عن الناس، وقد غَرَبَ عَنَّا يَغْرُبُ غَرْباً، وغَرَّبَ وأغْرَبَ وغَرَّبه وأغْرَبه: نحَّاه. والغَرْبة والغَرْبُ: النوى والبعد.

ويقال: غَرَّبَ في الأرض وأغْرَبَ إذا أمعن فيها.

وغَرْبة النوى: بُعْدُها، ودارهم غَرْبةٌ: نائية.

والتغريبُ: النفي عن البلد – وغَرَبَ: أي بَعُدَ، وأغْرَبْتُه وغَرَّبته: إذا نحيته وأبعدته والغُرْبَة والغُرْبُ: النزوح عن الوطن والاغتراب.

وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم، سُئل عن الغرباء، فقال: الذين يُحيون سنتي ويعلمونها عباد الله.[١].

والغريب: الغامض من الكلام.

والغرباء: الأباعد، ورجل غريب: أي ليس من القوم.

والغُرُب بضمتين: الغريب، والغُرب بالضم: النزوح عن الوطن كالغربة، والاغتراب والتغريب: البعد[٢].

٢ – **الحَنَّان**: من أسماء الله عزَّ وجل، والحنَّان: الرحيم من الحنان وهو الرحمة. والحنَان بالتخفيف: العطف والرحمة.

والحنيُن: الشديد من البكاء والطرب، والحنينُ: الشوق وتوقان النفس.

تقول: حَنَّ إليه يَحنُّ حنيناً فهو حانٌّ، وحنَّت الإبل: نزعت إلى أوطانها أو أولادها.

ويُقال: حَنَّ عليه أي عطف، وحنَّ إليه أي نزع إليه.

---

(١)– أخرجه القضاعي بسنده عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ : إن الدين بدأ غريبا وسيعود غريباً فطوبى للغرباء، فقيل يا رسول الله :من الغرباء؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله مسند الشهاب تأليف : محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي حققه وخرج أحاديثه : حمدي بن عبدالمجيد السلفي تحت عنوان "إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً" رقم (٦٧٦) حديث رقم(١٠٥٢) ج٢ ص١٣٨ ط مؤسسة الرسالة – بيروت ط ١٤٠٥ – ١٩٨٥م.

(٢) – تاج العروس مادة "غرب" ط مكتبة الحياة – بيروت لبنان.

والحِنَّةُ: رقة القلب، تحنَّن عليه: ترحم(١).

ولا ريب في أن الهجرة والتنقل والارتحال من مكان إلى مكان تعطي معنى الغربة والنزوح والبعد، والشعراء منذ الجاهلية وحتى اليوم يتحدثون عن ألم البعد والهجر سواء أكان بعداً مكانياً أم بعداً نفسياً، ولا أدل على ذلك من مقدمات القصائد الجاهلية، ومنها معلقة امرئ القيس التي يقول في مطلعها:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمِلِ
كأنّى غداة البين، يوم تحملوا لدى سُمرَاتِ الحيِّ ناقف حْنظلِ
وقوفا بها صحبي عليَّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمِلِ (٢)

وإن أول شاعر عربي رفع عقيرته بالدعوة إلى الهجرة هو " الشَّنْفَري " في لامية العرب، حيث قال:

أقيموا بنى أمى صدور مطيِّكم فإنىِّ إلى قوم سواكم لأميلُ
فقد حُمَّت الحاجات والليلُ مقمرٌ وشدَّت لطياتِ مطايا وأرحلُ(٣)

وكلام الشاعر يوحي بأنه ينوي رحلة بعيدة المدى في جماعة من قومه، ولو كانت رحلة فردية من الرحلات المألوفة لما وقف عندها، ولا أشار إلى المطايا والأرحل، بل كان امتطى قدميه واندفع يعدو من مكان إلى مكان دون استعدادٍ ولا استفسار، ثم هو يعدد أسباب الهجرة وبواعثها فيقول:

وفي الأرض منأي للكريم من الأذى وفيها لمن رام القَلى متعزِّلُ
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئُ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل(٤)

(١) – لسان العرب مادة " حنن ".

(٢)– ديوان امرئ القيس ص ٢٥ – ٢٧ حققه و بوبه و ضبط بالشكل ابياته حنا الفاخوري ط دار الجيل بيروت.

– انظر المعلقات بشرح الزوزني ص ٢٩ – ٣١ ط دار الحياة بيروت.

(٣)– لامية العرب ص ٥٨ – ٥٩ ط دار الحياة بيروت.

(٤)– لامية العرب ص ٥٨ – ٥٩ ط دار الحياة بيروت.

ثم يأتي بعد " الشنفري: الإمام الشافعي، فيدعو ويتشدد في الدعوة للنزوح عن الأوطان، فيقول:

ما في المقام لذى عقل وذي أدب   من راحـــةٍ فدع الأوطانَ واغتربِ
سافـر تجَدْ عـوضاً عمَّـا تفارقه   وانْصب فإن لذيذَ العيش فى النَّصبِ
إنِّى رأيتُ ركـودَ المـاءِ يفسدُه   إن ســال طاب وإن لم يجر لم يطبِ
والتبر كالترب ملقى في أماكنه   والعود في أرضه نوعٌ من الحطبِ(١)

ثم يقول في موضع آخر:

إذا قيل في الأسفار ذُلٌّ ومحنةٌ   وقطع الفيافى واقتحام الشدائد
فموتُ الفتى خيرٌ له من حياته   بــدار هوان بين واش وحاسد(٢)

ثم يأتي بعده أبو تمام ويقرر المعنى الذي قاله الامام الشافعي سابقاً ويومئُ إليه بقوله:

وطول مقام المرء في الحيِّ مخلقٌ   لديبـاجتيه فاغتــرب تتجــددِ
فإنـيِّ رأيتُ الشمس زيدت محبةً   إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمدِ(٣)

ثم يأتي بعد أبي تمام " الطغرائي " في لاميته فيقول:

إنَّ العُلى حَّدثتني وهـي صـادقةٌ   فـي ما تُحدِّثُ أنَّ العزَّ في النَّقَل
لو أن في شرفِ المأوى بلوغَ مُنىً   لم تبرح الشمسُ يوماً دارةَ الحمل(٤)

---

(١)– ديوان الإمام الشافعي ص ٢٢، ٢٣ ط دار الإسراء للنشر والتوزيع.

(٢)– ديوان الإمام الشافعي ص ٤٢ .

(٣)– ديوان أبي تمام ج٢ص٢٣ تحقيق عبد الوهاب عزام ط دار المعارف ١٩٦٥م٠

(٤)– قصائد لا تموت مختارات دراسات ص ١١ محمد إبراهيم أبو سنه ط دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.

ودعاة الاغتراب عن الوطن يظنون أن الهجرة سياحة مؤقتة، الهدف منها الاستفادة من ثمرات الأرض الغريبة، ومن علوم سُكَّانها، ثم العودة إلى أحضان الوطن للتمتع بالفائدة الحاصلة، وهم يفترضون أن الهجرة ناجحة على طول المدى، وكأنَّ وراء كل سعي حثيث نجاحاً مؤكداً ينتظره، وأنيَّ لهم هذا...!!.

؟؟؟عي ؟بو؟عث هجر؟؟؟لشعر؟؟.

حاول مؤرخو الأدب أن يجدوا أسباباً ودواعي لهجرة أبناء العرب الجماعية، وبخاصة الشعراء منهم فقالوا:

طموح في طبيعتهم كامن منحدر إليهم بداهة واستطراداً من أجداد لهم جابوا القفار وخاضوا البحار.

وبعضهم قال: مرونة وقدرة على الاقتباس والتكيف السريع في أيِّ محيط نزلوه، فرضها عليهم الموقع الجغرافي فأرهفها الاختلاط الكثير.

وبعضهم قال: ضيق المجال في بلد صغير المساحة كثير السكان صخري التربة.

وبعضهم قال: هي السياسة التركية التي جعلت شعارها فرّق تسد، حيث جعلت الدين فرقاً بين أبناء الوطن الواحد.

وقال بعضهم: مظالم الولاة والاستبداد وفقدان الأمان والحرية (١).

ويبدو أنَّ كل هذه العوامل أو البواعث مجتمعة دعت إلى هذه الهجرة، ولكنها تختلف من شاعر إلى شاعر آخر، لكن يبدو أن العامل الأقوى والأهم في هجرة الشعراء بصفة خاصة هو العامل الاقتصادي، الذي سبَّبَ لهم فقر وحرمان لم ينفع في مداوتهما جهد ولا نشاط، في وسط رجعي النزعة، وفي ظل حكومة غاشمة تستحلُّ الأرزاق وتهدر الأرواح.

لكنَّ سؤلاً يطرح نفسه هو: هل كان شاعرنا ممنَّ دعت البواعث السابقة لهجرته مثل هجرة الكثير لشعراء آخرين ؟ ونحن نعلم فيما ترجم عنه في مقدمة الديوان، أنهَّ كان يعيش في بحبوحة من الوجاهة ورغد من العيش، وأقرَّ هو بنفسه أنه لم يذهب إلى هذا العالم من أجل المال، فقال: " لم يكن سفري عن حاجة، بل عن هوى ولجاجة "(٢) كما لم يكن أيضاً سفره فراراً من الاستبداد والظلم؛ لأنه من أسرة عريقة في الحسب والنسب، كان لها اتصال وثيق بالحُكَّام في هذه الفترة من حياة الشاعر.

---

(١) – أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية ج ١ ص ٣٢ بتصرف : جورج صيدح.

(٢)– السابق ج ٢، ص ٣٩١.

إذن فما الأسباب والبواعث التي دعت إلى هجرة الشاعر ؟.

إذا أردنا أن نبحث عن الدوافع والأسباب التي دعت شاعراً مثل أبي الفضل ابن الوليد إلى الهجرة فلابدَّ أن نطالع شعره ونطيل فيه النظر والتأمل حتى نتعرف على هذه الدوافع، ولكن يبدو أن الدافع الأهم والباعث الأول على هذه الهجرة هو أنَّ الأوساط الأدبية في هذه الفترة لم تكن لتهتَّم بالنوابغ من أبناء الوطن فأحسَّ بالنكران الذاتي، وتطلعت نفسه إلى العالم الآخر؛ لأنه وجد أنَّ منْ دونه منزلة ومكانة ورحل إلى هذا العالم ذاع صيته وعلا نجمه إلى القمم الشم، وهو مازال يرسف في أغلال عالمه الذي كبله وتجاهله وغضَّ طرفه عنه وتنكَّر له، فأحب المجد والشهرة والذيوع وعلو الصيت فعزم على الرحيل وصدم في عالمه الأخر بواقع مرير لم يكن ليحسب له حساب، لكنه ظن أنه عالم مكلل بالورد ينتظر قدومه، فإذا هو عالم المادة والوحدة، فتألمت نفسه وصدم بواقعه الجديد.

هذا المجد الأدبي الذي أراد الشاعر أنْ يحققه خارج وطنه، وهذا المجد المادي أيضاً ترجم عنهما في كثير من قصائده، استمع إليه يفصح عن مكنون نفسه وجيشان صدره، ويطلعك عماً في قلبه وهو يقول:

ونَفْسٍ لنيلِ المجدِ تَسْتَعْذِبُ الرَّدى　　　كَنَسْرٍ لأَصْوَاتِ الرُّعودِ طَروبِ(١)

ثم تهدأ نفسه أحياناً وتثور أحياناً أخرى باحثة عن غايتها التي تريد الوصول إليها، فتلهج مرات ومرات بما يدور في خلدها من هذا المجد الذي ترنو إليه وتتمنى الحصول عليه، فيقول مخاطباً أمَّه وهي تريد أن تردَّه عن عزمه وتثنيه عن هجرته:

دَعِينِي أُفِّ المجدَ يا أمّ حَقَّهُ　　　وأَقْضِ شَرِيفاً مثلَ جَارٍ عَسِيبِ(٢)

---

(١) – الديوان ص ١٥٧.

(٢)– السابق ص ١٥٧.

ومازالت نفس الشاعر التي بين جنبيه تدفعه إلى هذه الهجرة حتى يحقق من خلالها ما عجز عن تحقيقه في بلاده، فإذا صيحاته تعلو، وقدماه يسرعا الخطو، ونَفَسُه يتلاحق حتى يصل إلى قمة الجهد فيقول:

فإمَّا وراءَ البحرِ مَجْدٌ مُؤَثَّلٌ وإمَّا لدَى العلْياءِ خَرَّةُ ضُرْغَامِ(١)

أيُّ تصميم على نيل هذه المنزلة التي جنى عاقبتها مرارة في القلب وجُرْحاً في الفؤاد، وعذاباً يذوق طعمه ليل نهار، كما حدَّثنا عن ذلك من خلال أبياته وقصائده التي ترجم فيها عن أسى غربته !! ثم يأمل الشاعر أن يَنال ما ترنو نفسه إليه، ويطوي عزمه عليه، ويطلبه بكل ما أوتي من قوة وعزم فيقول:

سأقْتَحمُ الأمْواجَ في طلبِ العَلَى كَما انقضَّ بازٌ أوْ تقدَّمَ رئبالُ(٢)

وبعد فهذا قليل من كثير أردت من خلاله أن أبيِّن الدافع الأساسي الذي من خلاله حد الشاعر إلى الهجرة وترك أهله وذويه، إلاَّ أنَّ هناك دافعاً آخر دفع الشاعر إلى الهجرة وهو الإثراء الفردي أو الذاتي، ولم يكن هذا الدافع في القوة كالدافع الأول.

۞۞۞

(١) – السابق ص ١٥٩.
(٢)– السابق ص ٢٣٠.

?لفصل ?لأ? ?
?لغربة ??لحنين ? شعر? ??لفضل بن ?لوليد
?لمبحث ?لأ? ?: ?لغربة ?لمكانية ???لوطنية

وتتمثل ملامحها في:

١ - ?لـو?? ?:

لا ريب في أنَّ أول المراحل التي يمرُّ بها الإنسان عند رحيله هي وقفة الوداع، وهي وقفة مؤلمة مفجعة موجعة، تكاد ترى المودَّع فيها كالذبيح الذي يرفرف قلبه من شدة الوداع، قبل أن يفارق مَنْ يودعه، وقد جاءَ في اللسان أنَّ " التوديع وإن كان في أصله تخليف المسافر أهله وذويه وادعين، فإنَّ العرب تضعه موضع التحية والسلام؛ لأنه إذا خلَّف دعا لهم بالسلامة والبقاء ودعوا له بمثل ذلك "(١).

والرسول ﷺ – أمر بتوديع المسافر لأهله ودويه؛ لأن الله سبحانه وتعالى – جعل في دعائه البركة ، فقال:" إذا خرج أحدكم إلى سفرٍ فليودع إخوانه؛ فإن الله – تبارك وتعالى – جاعل في دعائهم البركة " (٢).

ولأن الوداع مفجع وموجع، فقد دعا أبوبكر الأصفهاني إلى تجنبه، إذا كان للإنسان الخيار في ذلك؛ لأنها وقفة عذاب وألم، ولحظات اشتعال الأحشاء بنيران الشوق؛ ولأن الإنسان لن يرى بعدها مودعه لمدة قد تكون طويلة، بل يظلُّ وحده يعاني ألم الفراق، فقال " فعل الوداع وتركه نقصٌ كله، فمن قدر أن يردَّ الفراق عن نفسه فعل، وذلك أن الحزم لأهل الهوى ألاَّ يبسطوا على أرواحهم يد النوى؛ فإن عذاب الهوى مع حضور المحبوب يُنغِّصُ العيش، ويبرِّحُ القلوب، فكيف إدا تحكم سلطان الفراق، وأهدت صاحبه الفكر بخواطر الإشفاق، والتهبت في الضمير لوعات الاشتياق، حينئذ تسكب العبرات وتتمكن الحسرات "(٣).

ولمَّا كانت هذه اللحظات صعبة حزينة تُذرف فيها دموع الحسرة والألم، وترق وتلين فيها القلوب القاسية، قال عنها ابن حزم: "ولعمري لو أن ظريفاً يموت

(١)- لسان العرب مادة ((ودع)).
(٢) – هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ٣٦.
(٣) – النصف الأول من كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن سليمان الأصفهاني ج ١ ص ١٨٤ – ١٨٥ – نشره لويس ينكل البوهيمي
ط مطبعة الآباء اليسوعين بيروت ١٩٣٢ م.

ساعة الوداع لكان معذوراً، إذا تفكر فيما يحلُّ به بعد ساعة من انقطاع الآمال وحلول الآجال، وتبدل السرور بالحزن " (١).

ولذا كان من الأفضل ترك الوداع، لكي لا يجتمع على الإنسان أمران عظيمان الوداع والفراق؛ لأنهما إن اجتمعا صعب على الإنسان تحملهما " فمن يقع به الفراق اضطراراً ويترك الوداع اختياراً فهو أحسن حالاً ممن يضطر إلى الأمرين جميعاً، فإن اجتماع الهجر والفراق يتلف مهجة المشتاق " (٢).

وكثير من الشعراء في القديم والحديث تناولوا هذه اللحظات المريرة، لحظات الوداع والفراق كُلٌّ حسب تأثره وانفعاله بهذه اللحظات، التي قد يحسُّ الشاعر من خلالها بنزيف داخلي لا يدري في أيِّ موضع من القلب يقع حتى يضمد جرحه، ويشفي فؤاده، فيظل يبحث عن موضع هذا الجرح فلا يكاد يصل إليه حتى يعود مرة ثانية إلى أحضان من ودَّعَهُمْ، بعد أن يحقق أمله ويشبع طموحه الذي كان الوداع والهجرة أحد أسبابه، وشعراء المهجر – بصفة خاصة – لهم نصيب وافر في شعر الغربة والحنين، بكل ما يحمل من ملامح ودواع أدت إلى هجرة بلادهم، وشاعرنا واحد من هؤلاء الذين تركوا أوطانهم بكل ما تحمل من أهل وأصحاب وأحباب وخلان، وبكل ما تحمل هذه البلدان من أرض ورياض وشعاب، وبكل ما يترامى على هذه البلدان من طبيعة ساحرة تحوي في داخلها دفء هذه الطبيعة الحانية، من سماء صافية أو شمس ناصعة، تتخللها أنهار جارية، وقنوات ساحرة، وحدائق غنية بالغصون اللينة، والأزهار التي تفوح عبيراً ومسكاً.

وشاعرنا وصف هذه اللحظات بأسلوب شعري أخَّاذ، تكاد تسمع من خلاله خفقان قلبه، وجيشان فؤاده، وحيرة عقله، وتموجه النفسي بين الرحيل وعدم الرحيل، وهذه التموجات النفسية هي التي أنتجت لنا هذا الفيض الغزير من شعر الغربة والحنين عند شاعرنا، والذي ما إن عزم على الرحيل حتى فاضت نفسه

---

(١) – طوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم ص ٤٨ ت : صلاح الدين القاسمي ط دار بوسلامة للطباعة والتوزيع تونس ١٩٧٩م.

(٢) – النصف الأول من كتاب الزهرة ط ١ ص ١٨٦.

بهذه الأشعار، التي تحتوي على لوعة الفراق، وألم الوداع ،فقد أخذ الشوق منه كل مأخذ قبل أن يودع أهله وذويه وأحبابه.

ومن هنا تبرز لحظة الوداع عند الشاعر مملوءة بالحسرة والألم والعبرات داخل العين والصوت الخافت المخنوق داخل الحنجرة، عندما حان وقت وداعه لأمه، التي يرفرف قلبها كُلَّما ذهب عنها وليدها يُمْنةً أو يسرة، فالشاعر يصور هذه اللحظة الأليمة بقوله:

وَيَوْمَ بَكتْ أُمِّى الحَنُونُ وراَعَها ... دُنُّـو وَداع كالحِمَـام رَهِـيبِ
وقـالتْ بصـوتٍ خـافتٍ مُتَهدَّج ... ومــنها زفيـرٌ لاحِـقٌ بنـجيبِ
بُنيَّ يَمِينُ اللهِ هـَلْ لكَ عَوْدةٌ ؟ ... ودَاعــك هـذا يـا بُنيَّ مُـذِيبِى
ألاَ أنـتَ بـاق آمــناً فى رُبوعِنا ... فَمِثْلُــكَ لم يُولد لِصعبِ ركُوبِ
فَقُلْتُ لها والجفْنُ يكــتُم عَبْرةً ... سأرجعُ يوماً فاصبري وثِقِى بى(١)

والوداع لحظات فيها تخفق القلوب، وتسكب الدموع، ليس بين الأهل وحدهم، وإنما بين الأحباب والأصحاب والمكان، فتوديع المكان لا يقل أهمية عن توديع أهلـه، فهـو يحمـل ذكريـات الصَّـبا والشـباب فـي طياتـه، كمـا يحمـل الرفـاق والأحباب، وتوديع الأحباب يكون باستجلاب الأرواح لو غابت الأجسام، يترجم الشاعر عن هذه المعاني بقوله:

أحِبَّتُنا فى سفـح لُبْنانَ إنَّكُمْ ... حَضَــرْتُمْ بـأرْواح وغِبْتُمْ بأجْسَام
وَمَا زَالَ قَلْبى دَامِيـاً لوداعِنا ... عَشِيْةَ لَاقى دَمْعُكمْ دَمْعِى إلْهَامِى(٢)

ومن لحظات الوداع التي لا تفارق مخيلة الشاعر، لحظة وقوفه على البحر وقت غروب الشمس،ينتظر سفينته التي تحمله إلى العالم الآخر، عالم الأحلام والآمال والمجد المؤثل الذي ينتظره، وهو في هذه اللحظة يرنوا بعينه إلى الأرض التي تربى على ظهرها فيطيل النظر إلى سهولها وجبالها وصخورها ووديانها وأنهارها، وعيناه تذرف الدمع لوداعها، فيقول:

وَمَا أَنِستِ الأسفارُ لَا أَنْسَ وَقْفَةً ... علـى بَحْـرنَا والشَّمْسُ عِنْدَ مَغِيبِ
أُودِّعُ سُـوريَّا وأُدِعُها الــهوَى ... وكفِّـى بكفــيِّ صَـاحبٍ ونسيبِ

(١)– ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٥٧.

(٢)– السابق ص ١٥٩.

وأَرْنُوا مُشَوقاً من خِلال مَدَامِعي إلى جَبَل بادي الصُّخُور رَهِيبِ(1)

وإذا كان الشاعر ودَّع أمِّه، وودَّع أرضه، وذكر لحظة انتظار السفينة التي تحمله إلى عالمه الآخر، فلا بدع أن يودَّع محبوبته التي لم تتوقف عيناها عن الدموع لرحيله، والشاعر هنا يصور لنا كيف كان وداعه لمحبوبته، وهو يتقلب بين الأمل والرجاء تارة وبين دموع محبوبته تارة أخرى، يترجم الشاعر عن ذلك بقوله:

وذاتِ دلال ودَّعَتْنِي عشيَّةً هُنَالكَ تحتَ الدُّوح والدَّمعُ هَطَّالُ
فَقُلْتُ وقَدْ قلَّبْتُ خداً كأَنَّهُ قُرُنْفِلَةٌ فيها نَدى الصُّبح جَوَّالُ
رُويدَكِ لَا تَبْكِي على الرَّاحل الذي يَسِيرُ ومِلءُ النّفس عَزمٌ وآمالُ
دَعِي القلبَ يَلْهُو بالرجاءِ وبالهوَى وصلِّي لعلَّ اللَّهَ لِلْحَبْلِ وَصَّالُ(2)

وهنا تنتهي هذه المرحلة لتبدأ مرحلة أخرى من مراحل الغربة والشجن الشعري، وهي:

٢ - ?لرحيل:

يمثِّل المرحلة الثانية من مراحل الغربة، والتي بدأت بالوداع فالرحيل، ثم اللجوء والفراق، هذه هي المحطات التي يمرُّ بها الشعراءُ أنفسهم أو أحبابهم أو ذووهم، فيعانون منها، مما يجعلهم يسجلون ما يشعرون به في تلك اللحظات المريرة، ويصفون رحلتهم أو رحلة أحبابهم الظاعنين.

وقد جاء في اللسان أن " الترحل، والارتحال: الانتقال، وهو الرِّحلة والرُّحلة، وارتحل فلاناً إذا عاونته على رحلته، وأرحلته إذا أعطيته راحلة، ورحَّلتُه بالتشديد إذا أضعته من مكانه وأرسلته ... والرحيل اسم ارتحال القوم للمسير(3).

وسبب الغربة عند شاعرنا رغبته في السفر والمغامرة وطلب المال، أو تحقيق مجد عظيم، لذا فضل الحياة القلقة المضطربة على الحياة الهادئة الوادعة

(١) – السابق ص ١٥٧.
(٢) – السابق ص ٢٣١.
(٣) – لسان العرب مادة " رحل ".

بسبب طموحه وآماله الكبيرة، حتى لو توافرت له الحياة الرغدة الهانئة ما اختارها على المجد والعلا، وهو يلتقي مع شاعر العربية المتنبي في قوله:

لولا العلا لم تَّجُبْ بي ما أجوب بها   وجناءُ حرفٍ ولا وجناء قيدود(١)

والرحيل موقف صعب على الراحلين التاركين لأهلهم، وعلى المقيمين الذين يرحل عنهم أهلهم وأحبابهم.

ويلتقي شاعرنا – أيضاً – مع أبي فراس الحمداني، الذي رحل من الشام سعياً إلى مصر لاكتساب المجد ولأنه يرجو أن يحقق أمله، فلمَّا أخذت الغربة منه كل مأخذ، وتذكر أهله ووطنه وأيَّامه الجميلة السابقة تمنى عودتها، ثم بعث سلاماً لأهله ودياره فقال:

ولولا اكتسابُ المجدِ لم أغدُ راحلاً   إليها وجئتُ الشامَ قصداً إلى مصر
فإن تطمئن الدارُ من بعد نبئوة   كأيَّامنا اللائي مضينا بلا هجر
فإني لأرجو أن أنال محبتي   وأبلغ أمالي على العسر واليسر(٢)

ولم يبتعد شاعرنا عمَّن سبقه من الشعراء في استجلاب معاني الرحيل، ولكنه صوره بعاطفة جياشة نابعة من قلبه، الذي كُلَّما أحسَّ بقرب الرحيل مزَّقه الشوق والوجد، ولذا نجده يصف هذه اللحظات التي ركب فيها السفينة لنقله إلى العالم الآخر الذي يتطلع إليه ويتمنى الوصول له، فيصف الأمواج المتلاطمة في طول البحر وعرضه التي لفَّها الليل بظلامه الدامس، ثم يوضح كيف إن هذه الأمواج وهذا الليل لم يؤثرا فيه، ولم يلقيا الجزع والفزع في قلبه، وإنما ثبت عزمه على المضيِّ قُدماً نحو عالمه الذي يتمناه، لكي يحقق هدفاً ينشده، وأملاً طال انتظاره، يرى بريقه من خلال هذه الأمواج الهائجة المائجة وهذا الليل المظلم في قوة وعزم وإصرار، فيقول:

---

(١)– شرح ديوان المتنبي مراجعة نخبة من الأدباء ص١١١ ط منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان٠

(٢) – ديوان أبي فراس الحمداني ج ١ ص٢٢٢.

تَقَاذَفتِ الأمواجُ بي وتلاطَمتْ وألْقَى عليها الليلُ بُرْدةَ أَظْلام
فَلَمْ أكُ مثلَ الرَّكْبِ يومًا صَريعَها ولكنَّني ثَبَّتُ عَزْمي بإقْدَامِي
وَقُلْتُ لها لابُدَّ أنْ تَحْمِلي فتىً يَضُمُّ بقايا المجدِ في صدر هَمَّام
فإمَّا وَراءَ البحر مَجْدٌ مُؤثَّلٌ وإمَّا لدي العلياءِ خَرَّةُ ضُرْغَام (١)

والشاعر بين الأمل والرجاء يتردد ويتساءل في حيرة ووله شديدين، تتلاعب به التموجات النفسية، وكأني به يقف على شاطئ البحر يقدم رجلاً لركوب السفينة ويؤخر أخرى ينظر بعينه إلى ملاعب الصَّبا ومراتع الشباب، فيقول:

أأرْحَلُ عَنْ مَغْنَاكِ غَيْرَ مزوَّدٍ إلى البلدِ المُزدَان بالآس والنَّخل؟
سَتَبْكِينَ أيَّاماً على قلْبِ رَاحل تعوَّدَ ألاَّ يطلبَ المالَ بالذُّل
فإنْ هاجكِ الذكرُ المؤرِّقُ فانْظُري إلى نجمةٍ زَهْراءَ تَبْدُو على التَّلِّ(٢)

ولكنه الرحيل الذي لا مفرَّ ولا مهرب منه، يمشي إليه وكأنما يمشي على مهجته، تتلاحق معه أنفاسه في سرعة شديدة، تصحب هذه الأنفاس الشديدة السريعة عبرات وتنهدات ، ترفع القلب إلى أعلى الصدر فيحس وكأنه في ضيق متلاحق، وكأن شيئاً ما يكتم أنفاسه ولذا نجده يقول:

على مهْجتِي أَمْشي أنا السَّائِحُ الذي له في بَقَايا الدَّهر آثارُ إلمام
فأنْفَاسُه حرَّى عليه وَنْفسُه تَعوَّدتِ التَّحْليقَ في جوِّ إلهام
وعَبْرتُه بَيْنَ الجُفُون عَزيزةٌ يَضنُّ بها إلاَّ على موقفٍ سَام (٣)

ولا يزال الشاعر يلهج لسانه بأسباب رحيله، فيفصح عنه بين الحين والآخر، وبخاصة عندما يخاطب محبوبته التي تبكي لرحيله، مبيناً لها قوته وشموخه أمام الأهوال والمصاعب التي تعترضه في طريقه، ليحقق أمله الذي يسعى إليه، ثم يخفف عنها وطأة رحيله بأن تتذكره في المكان الذي كانا يلتقيان فيه قبل الرحيل، بين غصون الغاب وقنوات المياه حيث كانا يلتقيان كل ليلة، فيقول:

رُويدَكِ لَا تَبْكِي على الرَّاحل الذي يَسِيرُ ومِلءُ النَّفس عَزمٌ وآمالُ

(١) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٥٩.
(٢)– السابق ص ١٨٦.

دَعِى القلبَ يَلْهُو بالرجــاءِ وبالهوَى ... وصلِّــى لعــلَّ اللّهَ لِلْحَبْلِ وَصَّالُ
سأقتحــم الأمــواج فــى طلــب العُلى ... كــما انقـضَّ بــازٌ أو تقدَّمَ رُئبالُ
إذا هَـاجَكِ البَدْرُ المُطِلُّ على الحِمَى ... ولِلْمَـوْجِ فَـوْقَ الرَّمل نَوْحٌ وإعْـوَالُ
وجـاءَتْ مـــع الأرْواح ريَّاً حُقُـولُنا ... وحَفَّتْ غُصُونُ الغابِ والماءُ سَيَّـالُ
قِفـى حَيْـثُ كُــنَّا نَلْتَقِى كُلَّ ليلةٍ ... ونَذْرفُ دَمْعاً دُوَنهُ الملكُ والمالُ (١)

وما هي إلا لحظات وتفارق سفينته شاطئ بلاده لترحل به إلى عالمه الذي يتمناه، والذي ظنه مفروشاً بالورد ينتظره على شوق ولهفة، وهنا تبدأ مرحلة أخرى من مراحل الغربة وهي:

٣ - ?لفر? ?:

ولا ريب في أن الشاعر مرهف الحس، يتأثر بنوائب الدهر، فيعبر عن إحساسه بألفاظ رقيقه، وجمل مشحونة تنبئ عمَّا في وجدانه من عاطفة وانفعال، والشعر بصفة عامة لا سيما العربي منه أغلبه شعر وجداني، فالشاعر يكتب مصوراً ما في أعماقه من معاناة وألم، نتيجة لفراق الأهل والأحبة والأصدقاء.

وجاء في اللسان " فارق الشيء مفارقة وفراقاً أي باينه "(٢)، ومن هنا يظهر أن كلمة البين مرادفة لكلمة الفراق وسنة الله في خلقه تقتضي أن لكل مجتمع من افتراق، ولكل دانٍ من تناءٍ، وقد سَمع بعضُ الحكماءِ قائلاً يقول:" الفراق أخو الموت" فقال: " بل الموت أخو الفراق"(٣)، وقد قال أبو الفرج الأصفهاني: "فقد الأحبة للأوطان غربة" (٤)؛ وذلك لأن المحب الذي يهجر حبيبه يحس بغربة وألم ووحشة، وكأنه فقد روحه، فيشعر بالحزن والحسرة وبالنار تضطرم في أحشائه، وكما قال الدكتور زكي مبارك: " كل مهجور غريب" (٥)؛ لأن الغربة ليست النأي عن الوطن فقط والوداع والفراق والرحيل، بل هي كما قال فيها بعض الأعراب:

---

(١)- السابق ص ٢٣١.

(٢) – لسان العرب مادة ((فرق)).

(٣) – طوق الحمامة لابن حزم ص ١٤٣.

(٤) – أدب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني ص ٣٢ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ط دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٢م.

(٥)- مدامع العشاق د زكي مبارك ص ٢٣.

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى وإنما من تنأيْن عـــنه غريبُ

وللفراق ألم شديد، وعذاب لا يحتمل، حتى قيل في قول سيدنا سليمان عليه السلام " لأعذبنه عذابا شديدا "(١) أي: لأفرّقن بينه وبين إلفه وهو أشدُّ العذاب(٢).

والفراق أنواع عدة هي: الفراق لمدة معينة يؤمن بانقضائها وبالعودة إلى الأهل والأحبة وهذا يحدث ألماً في القلب، وأرقاً لا يبرأ منه إلاَّ بالرجعة، وفراق يمنع من اللقاء ويحظر على المحبين من رؤية بعضهم بعضا ولو كانوا في دار واحدة، وهذا يؤدي إلى الحزن والأسف والمرارة، وفراق يتعمَّده المحب تجنبا لقول الوشاة، ووقاية من أن يكون ذريعة إلى منع اللقاء، وفراق يولده المحب بسبب رحيله " نتيجة لحافز يحدثه الزمان ثم فراق الموت وهو الذي لا يرجى له إياب وهو داهية الدهر الذي لا مفرَّ منه ولا دافع له وهو قاطع لأي أمل ورجاء في اللقاء، وهناك لابدَّ للإنسان من الصبر طوعاً أو كرها على هذه المصيبة العظيمة " (٣).

وهكذا تختلف غايات الشعراء في النظر إلى الفراق اعتماداً على اختلاف تجاربهم المتباينة، فضلا عن حالاتهم النفسية إبَّان لحظات ولادة نصوصهم الشعرية، غير متناسية بواعث القول فيها، وما أنْ بدأ الشاعر هذه المرحلة حتى وجدنا الشوق يأخذ منه كل مأخذ،ويطغى على روحه فيصف الموج المؤرِّق والريح الباردة لأُمِّه، ويخاطبها خطاب الضعفاء الذين لا يعرفون مصيرهم ولا مأوى لهم، ثم يستعطفها في حيرة ووله آملاً أن ينال هذا العطف منها، وأَنَّي له هذا وقد فارق أرضه ودياره ؟!! فقال مناديا:

يـا أمِّ والمـوجُ هـدَّارٌ يُـؤَرِّقُنى والـــرِّيحُ زَفّـارةٌ خَفّـاقةُ البَردِ

---

(١) – سورة النمل الآية ٢١.

(٢) – انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ج٣ص١٤٣ ط دار المعرفة بيروت – لبنان.

(٣)– طوق الحمامة لابن حزم ص ١٤٣.

وليلةُ الشَّوْق تَسْري مِثلَ أَرْملةٍ مَحْلُـولةِ الشّعْـر مِنْـوَاح إلى الأَبَدِ
مَـاذَا تَقُـولينَ أَوْ ماذا أَقُولُ إذا عَادَ البنـونَ إلى المأْوَى ولم أَعُدِ ؟
لَهْفِي على ولدٍ يَقْضِي الحياةَ بِلَا أُمٍّ، وَلَهْفِـي علـى أُمٍّ بـلا وَلَـدِ [1]

ثم يصف الشاعر الشواطئ التي نزل بها، إذ لم تكن رحلته رحلة محددة لمكان معين، وإنما كانت رحلات متعددة، مرَّ خلالها على شواطئ متعددة أنهكت قواه، وأضعفت جسده وضيعت قدره، علاوة عمَّا يكتنف إحساسه من غربة مؤلمة نغصت عليه حياته وعيشه، استمع إليه وهو يقول:

سَلِ الشواطئَ ما أَبْقَيْنَ من جَسَدِي وَمَا عَلَيْهِنَّ من دَمْعي ومِن كَمَدِي
ضَيَّعْـنَ قَدْري وأيَّـامِي ومَعْرفـتى فى غُرْبةٍ فَلُذَتْ أحزانُـها كَبِدي [2]

ولم يكن فراقه هذا مجبراً عليه، ولكن رغبة منه وطوعية عنه، لذا نجده يهلل لهذه الهجرة التي ذاق مرارتها فيما بعد، فلم يكن يحسب أنَّ الأيام توارى خلفها أنَّاتٍ وأنأَّت مصحوبة بدموع حارَّة لكل من أقبل على هذه الهجرة، مبيناً أنه بدأ هجرته سائحاً ثم ما أن استقر به المقام حتى بدت دموع الغربة تذرف من عينية، ولذا نجده يقول:

هَجَرْتُ بلادِي فـى السِّياحةِ راغبـاً وكَمْ فَوْقَ بحر الرُّوم من دمـع غربةِ
ولمـَّا بَدَت تِلْـكَ السَّـوَاحلُ فجـأَةً تفَجَّـرَ شِعْـري من حُبُوري وَدَهْشَتِى
فحييتُها مع طلعةِ الصُّبح والهوى يَفِيـضُ علـى قَلْبى وثَغْـري ومُقْلَتِى
فكَمْ شاعر فيها تبـسَّمَ أَوْ بكى وقَـدْ جـاءَهَا فـى نُـزْهةٍ أو عِبادة
وكَـمْ ثَـمَّ قلْبـاً طـارَ حُبّاً وصَبْوَةً وَرَأْسـاً غـداً يُحْنى لمجـدٍ و عِزَّةٍ [1]

(١)– ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ٢٠٤.
(٢)– السابق ص ٢٠٢.
(١)– السابق ص ١٦٣.

كل هذه ملامح للغربة المكانية أو الوطنية عند الشاعر، كما عبَّرت عنها أشعاره التي صاغها بعاطفة قوية، وإحساس مرهف، وخيال مبدع، في قالب رصين وألفاظ متناسبة مع تجربته

?لمبحث ?لثا ?

?لغربة ?لنفسية

وهى تمثل القسم الثاني من أقسام الغربة، وهي اشدُّ وقعاً على النفس من الغربة المكانية أو الوطنية، فالشاعر في بوتقتها يعيش تحت ضغط نفسي شديد، إذ يشعر بأنَّه غيرُ قادرٍ على مسايرة المجتمع فيميل إلى العزلة والانطواء، وخير من أشار إلى هذا المعنى أبوحيان التوحيدي عندما قال واصفاً الغريب بأبلغ وصف:" أغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه " (١)، ثم يكمل وصفه بكل دقة فيقول:" الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة، إذا حضر كان غائباً، وإذا ذكر الحق هُجر، وإذا دعا إلى الحق زُجر، الغريب من إذا قال لم يسمعوا له قوله، وإذا رأوه لم يدُورا حَوْلَه... والغريب في الجملة من كان كُلُّه حُرْقة، وبَعْضُه فِرْقَةَ، وليْلُهُ أَسف، ونهارُه لَهَف، وغذاؤه حزن، وعَشَاؤه شَجَنْ، وخَوْفُه وَطَنْ ".

والغربة النفسية حالة إنسانية يعاني منها الشعراء في كل عصر؛ لأنَّهم لا يستطيعون أَنْ يوفقوا بين صورة العالم في مخيلتهم كما يتمنون أنْ يكون، وبين ما يرونه في الواقع من تناقضات واضطرابات سببها الظروف المضطربة التي انعكست على أخلاق الناس وتصرفاتهم(٢).

والاغتراب لا يكون إلاَّ من نصيب العقول الذكية والأفراد الذين أتوا استعدادات فطرية، فالغرباء هم المتميزون الذين يرفضون أن يكونوا على هامش الحياة، أو يكونوا مهملين فلهم مقدرات خاصة يرغبون في الإفادة منها، وإفادة المجتمع كذلك، ولذلك يشعرون بالألم إذ لم يستطيعوا أن يحققوا ما يأملون، ثم يتجهون إلى العزلة كرد فعل لما أصابهم.

فالغربة النفسية أخذت تتلون عند الشاعر،وتأخذ أشكالاً مختلفة ومحاور متعددة، ولعل الغربة النفسية كانت مقدمة طبيعية للغربة المكانية التي عانى منها الشعراء

---

(١)– الإشارات الإلهية ص ١١٥.

(٢) – انظر الشعر في عصر المرابطين والموحدين في الأندلس ص ٢١٩.

في عصورهم المختلفة، وهي أيضاً مقدمة للغربة المكانية عند شاعرنا، وإن كان سبب الغربة بوجه عام عنده هو الطموح الذي لا نهاية له، وابتغاء المكانة الرفيعة التي أحسَّ أَنَّهُ يستحقها ولن ينالها إلا خارج وطنه الذي أنكره ولم يعترف به في الأوساط الأدبية، في حين أن غيره – وهم في نظره– أقل منه منزلة نالوا شهرة ذائعة، وبلغ شعرهم مبالغاً عظيماً، وطار في الأفاق وشرَّق وغرَّب عندما هجروا أوطانهم، وذهبوا إلى أوطان أخري تحترم الكلمة وتقدر المواهب، فأراد الشاعر أن يلحق بهؤلاء كي ينال ما نالوا من ذيوع الصيت والمكانة الرفيعة والمجد الذي ليس بعده مجد.

ولا أدل على ذلك من نزعة الإنكار التي عبَّر عنها في قوله:

بُليتُ بأَجلافٍ أَضَاعُوا مَوَاهِبي ... فمِنْ جَاهلٍ أغْضَى ومن حاسدٍ أنْكرْ
فَلَسْنا رفاقاً في الحياةِ وإنَّما ... بُليتُ بأَسْرٍ بَيْنَهُمْ والرَّدى أَسْتَرْ
ولولا شَقَائِي ما ظفرْتُ بحكمَتِي ... فَما كانَ أَغْلاها عليَّ وما أَعْسَرْ (١)

وقد تكون الغربة النفسية عند الشاعر مصدرها " **التمرد على الأوضاع القائمة في أمته العربية** " وما أصاب هذه الأمة من تقسيم وفرقة بسبب حُكَّامِها، واختلاف الديانات بين شعوبها وتقسيمها إلى شيع ومذاهب متعددة صَدَّعَ بناءَها، وأَزالَ هيبتها،في حين أنَّ هؤلاء الذين يحملون لواء هذا التقسيم وهذه الفرقة سواء أكانوا من الكهان أم الشيوخ يقولون مالا يفعلون، بل يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ،وكأنَّ هذه الشعوب إلعوبة بين أصابعهم يحركونها كيفما شاءوا، لذا أراد الشاعر أن يهرب من هذا الوضع المزيف ويخلدَ إلى نفسه، ويبتعد عن تلك الشعارات الجوفاء التي ينادي بها شيوخٌ وكُهَّانُ هذه الأُمة، فيأسى لما حلَّ بأمَّته من فرقة وتقسيم، فيقول:

وإنِّي لَيُوهِيني تَقَسُّمُ أُمَّتِي ... بأَدْيَانِها والشَّرُ بَيْنَ المَذاهِبِ

---

(١)– ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٩٧– ١٩٨ .

مَتَـى يَنْتهِـي كُهَّانُنَا وشُيُوخُـنا فَنَخْلُـصُ مـن حيَّاتِهمْ والعَقَـارِبِ
شَقِينَـا لِنُعْـاهُمْ وراحتِهِمْ فَهُـمْ يَسُـوقُونَنَا كالعِيسِ نَحْو المـعَاطِبِ
يَقُـولونَ صلُّـوا واصبروا وتقشّـفوا وتُوبُوا وصُومُوا وأثْبُتوا في التَّجاربِ
وَهُـمْ بيـن عَـوَّادوزقٍ وفينـةٍ لهـا عَبَثـاتٌ باللِّحـىَ والشَّـوَاربِ
يجوعُ ويَعْرى في الكهوفِ فقيـرُنا ويَشْقَـى وَيَبكِي صابراً غيْرَ عَاتِـبِ (١)

وقد يكون مصدر الغربة النفسية عند شاعرنا " **الظروف المضطربة التي تَمُرُّ بها البلاد في هذه الفترة** " فيلقي بلومه على العصر الذي يعيش فيه،والواقع الذي يضمه في حناياه، فيرفضه ويثور عليه بكل ما أوتي من قوةٍ، مشيراً إلى عامل المادة ووقعها في حياة الإنسان، وكيف إنَّ المال يُحقِّرُ شعورَ الكريم، ويجبر عثرة الحقير، فالكلمة العليا لأصحاب الأموال، حتى ولو حوت في داخلها كثيراً من الظلم وهضم الحقوق، وإذا كان الأمر كذلك فمن لهؤلاء الضعفاء الذين لا يملكون الأموال ؟، من أجل ذلك كانت ثورة الشاعر على هذا العصر الذى وصفه بأنه عصرٌ حديدي، لا روح له ولا قلب فيخاطبه قائلا:

أَلاَ أَيُّهـا العصرُ الحـديديُّ دَعْ لنا قليـلاً مـن الأفْـلاَذِ والـدَّمـعَاتِ
بمَعْدنِكَ القاسِـي تدوسُ قُلوبَنَا فكَمْ من قُلوبٍ فيكَ مُنْسَحِـقَاتٍ
وَمَـا مِـْن شَـرِيفٍ صَادق بوعُودِه وَمَا مـن كَـريمِ جـابرِ العَـثَراتِ
لَقَدْ حَقَّرَ المـالُ الحقـيرُ شُعُورَنا وقـوَّيَ رجالَ الظلم والفـتكاتِ
فلاحـقَّ إلاَّ للقـويِّ بمـالـهِ فَمَنْ للضَّعيفِ الدَّائِم الحسراتِ ؟(٢)

لقد أراد الشاعر أنْ يُعَبِّر عما أراد أنْ يُعَبِّر عنه غيره، فأحسَّ بشعوره ووجدانه أنَّاتَ وآلامَ الآخرين الذين عجزوا عن الإفصاح، فكان الشاعر لسانهم الذى ينطق وضمائرهم التي تنكر، هذه الأوضاع المذرية التي لا يقرها دين ولا تعترف بها شريعة، وإذا كان الشاعر ينكر هذه الخصال ولا يعترف بها، فكان عليه ألاَّ

(١)- السابق ص ١٩٠.
(٢)- السابق ص ١٦٥.

يهرب من واقعة ويطرح لنا الحلول ويصف لنا علاجا لهذه الداءات،بها تتغير هذه الأوضاع التي لا يرضى عنها.

?لمبحث ?لثالث
?لحنين

والحنين هو " لَونٌ من الحبِّ وشوقٌ إلى الماضي(١)، وهو نزعة إنسانية عريقة عرفتها الشعوبُ وذاقت طعمها مواكب الإنسانية، وهي تتحمل غصصها، وتكتوي بلهيب شوقها... فالإنسان الذي تعوّد رؤية الأرض وألف الحالة المصاحبة له، وتنسم أريج الدار التي عرف منها أيام الصِّبا، وعاش في ثنايا دروبها لحظات الطفولة والصحبة لا تغادر مخيلة التاريخ الحافل أن يذكر كلَّ هذه الأيام، ولا تبتعد عن ذاكرته هواجسها المقترنة بالصفاء والسعادة لاتصالها بأسباب النشأة الأولى(٢).

ولا ريب في أنَّ العربي الأول عاش على أرضه في شبه الجزيرة العربية في حركة دائبة، باحثاً عمَّا توفره صحراؤه القاحلة من ماءٍ وكلأ وغير ذلك من مصادر العيش الأخرى، ومن هنا يتضح أنه كان كثير التنقل لا يكاد يقيم في مكان واحد لوقت طويل، وعلى الرغم من هذه الحالة التي هو فيها إلا أنه كان يجدد حماه في قبيلته، إن لم يجدد معاهده التي لا يتركها إلاّ على مضض بعد أن تضطره أسباب خارجة عن إرادته كإمساك السماء بعد إرسال، أو اضطراره إلى الرحيل بفعل قوة مؤثرة، ومن جانب آخر فما أن يقيم العرب في أرض مشعبة ممرعة حتى يتمسكوا بها ولا يفكرون في الرحيل عنها إلاَّ بعد جدبها(٣)، وعلى الرغم من ذلك كله يبقى العربي مرتبطاً بأرضه مشدوداً بفطرته إلى المكان الذي نشأ فيه.

وكان يقال: " بحبِّ الأوطان عُمِرّتْ البلدان(٤)، والناس مقتنعون بأوطانهم أكثر من اقتناعهم بأرزاقهم، ولذلك قال " ابن عباس": " لو قنع الناس بأرزاقهم اقتناعهم بأوطانهم ما اشتكى عبدٌ الرزق"(٥).

---

(١) – الحنين عند العرب رابح لطفي جمعة ص ٩٢ / عام ١٩٧٩ م..
(٢) – ينظر محاولات في دراسة اجتماع الأدب ص ٨٩.
(٣) – ينظر الوطن في الأدب العربي ص ١٧ – ١٩ وينظر في الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي ص ٤٣.
(٤)– المحاسن والمساوئ ص ٢٠١.
(٥)– الحنين إلى الأوطان ص ١٠.

والشاعر العربي يحنُّ ويشتاق إلى تلك الأرض والديار التي أقام بها، وقضى حقبة من حياته فيها، وخلَّد ذكريات عن الحبِّ والوداد بين جنباتها، وحينما يتذكرها أو يمرُّ بآثارها، يذكر أيَّامه الحلوة وأحبابه وأهله، والمكان الذي أقام فيه، ويبكي عليه ويستبكي أصحابه، ويدعو لها بالسقيا والخصب[١].

ولما كان الشعر منفذاً مؤثراً في التعبير عن مكون وخلجات النفس مثل دواعي النزوع عن الوطن والأهل، فقد أصبح" الحنين" موضوعاً شعرياً يفصح عن مدى عمق تجارب الشعراء وقدرتهم على التصوير في هذا النمط الشعري المميز، والذي بواسطته يستطيع الشعراء التعبير عن خلجات النفس وتوضيح انفعالاتها بما يغني هذا الفن، ويعمل على إثرائه بنصوص شعرية مميزة.

والحنين إلى الوطن عند شاعرنا قد أخذ مظاهر شتى وألواناً متعددة، رصدتها في ثلاثة محاور هي:

١ - ?لحنين ? ??لوطن:

لم يخل الشعر العربي في أي عصر من عصور الأدب حتى عصرنا الحاضر من أشعار الحنين إلى الوطن، الذي هو جزء من فطرة الإنسان، والشعر العربي حافل بالكثير مما قيل في هذا الموضوع، فمنذ عصر ما قبل الإسلام والشعراء يقفون على آثار الديار ويبكون مواطنهم الأولى، ويحنون إلى أيامهم الجميلة الماضية، ولقد اتسم حب الوطن بالثبات والهدوء، فهو حب خالط الروح والجسد فامتزج بحياة الإنسان[٢].

ولقد كان العربي يشعر بالحنين والشوق إلى موطنه عندما يغادره، وكأنه مغرم به وكأنَّما هو مدَّله بمحبوبته، بل هو في هذا أصدق، أعني في حبه لوطنه، فقد يجد الرجل مع كل منقلب ما يسلو به عن فاتنته، ولكنه لم يجد أرضاً أخرى تنسيه بيئته، فإذا هو لهجٌ بوطنه في غربته، لَهِفٌ إلى أوبته.. يذكر مرابع صباه ومغاني لهوه ومجالس أنسه،... وفيما بين هذا وذاك أهله وعشيرته[٣].

---

(١)- الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي ص ٤٤.

(٢)- ينظر الوطن في الأدب العربي ص ١٠١.

(٣)- السابق نفس الصفحة.

وفي حقيقة الأمر ما شعر الأطلال إلاَّ شعر في الحنين إلى الوطن، فالحنين إلى الطلل يمثل الحنين إلى الوطن؛ لأنَّ الطلل وما يحيط به وما يتناثر حوله من دمن يمثل مجموعة الذكريات التي عاشت في ذهن الشاعر فحمل إليها أجمل الأوقات وأسعد الأيام(١).

وشاعرنا متيم بحبٍّ وطنه الصغير الذي يمثل مسقط رأسه " قرنة الحمراء" وكثيراً ما لهج لسانه بها في شعره، يذكر صباه، ومراتع أهله، يذكر هذه القرية بكل ما فيها من حدائق وأشجار وأحباب، فهو دائم الحنين إليها كحنين الطفل إلى حضن أمه، ولذا نجده دائماً يستأنس بذكرها في شعره، وكأنه في تعب وجهد دائمين، فإذا ما ذكرها استراح قلبه واطمأنت نفسه، ولذا نجده يقول:

أَحنُّ إلى الحمراءَ جَنَّاتِ بُلْبُلِ ... يُروِّعُه لَيْلاً دَوِيٌّ نَعيبِ
تَنَاثَر قلبي مثلَ ريشاتِه على ... مُلِماتِ دَهْرٍ بالكرامِ لَعُوبِ
فكيفَ أَحبائِي الذِينَ تَرَكْتُهمْ ... وقَدْ باتَ يُشْقِيهم أَلجُّ طَلُوبِ(٢)

وليس حنين الشاعر إلى قريته حديث عهد به في غربته، بل إنَّ حنينه إليها محفور في قلبه وعقله منذ الصغر، فهي التي تلهمه قصائده التي بها يُنَفِّسُ عن صدره ليستريح من تعب الحياة، وكأن حنينه يشبه حنين الطائر الذي قُصَّ جناحه، وقد رأى الطيور ترجع إلى أوكارها أفواجاً، والشاعر هنا يمثل لنا عجزه عن إدراك أمنيته في العودة إلى وطنه دون جدوى فيقول:

أَحنُّ إلى الحمراءَ صَبَّاً مُؤرَّقاً ... فأخْرِجُ من قَلْبي القصائِدَ إخْراجا
كَما حَنَّ مقصُوصُ الجنَّاحِ وَقَدْ رأى ... طُيُوراً إلى الأوْكارِ تَرْجعَ أَفْواجا(٣)

ثم تتسع دائرة الحنين عند الشاعر، فيخرج من نطاق حنينه لقريته إلى حنينه لوطنه الكبير " لبنان" متمنياً أن ينعم وطنه بالخصب والرخاء ورغد العيش؛ لأن

(١) – ينظر وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية د نوري حمودي القيسي ص ١٠ ط مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٧٤ م.
(٢) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٥٧.
(٣)– السابق ص ٢٤٥.

فيه أحباب تعلق قلبه بهم، فهو في اشتياق إليهم، وحزين على فراقهم، يتنسم رائحتهم في الرياح التي تهب عليه من ناحيتهم، ولذا فنفسه:

تَحِنُّ إلى لُبْنَانَ نَفْسِي وتَشْتَهِي ... لأَهْلِيه عيشَ الخصبِ والعْدلِ والأَمنِ
هُنَالِكَ أَشخاصٌ بهم قد تعلَّقْتُ ... فللحُبِّ ما أَلْقى من الشَّوقِ والحزنِ
على واحدٍ منهم إذا هبَّتِ الصَّبَا ... أَرى فَلْذةً من مُهْجتي سَقطت منِّي(١)

وإذ كانت لبنان في قلب الشاعر وعقله، فإن أرض الشام كُلِّها بما تحمل من أوطان هي وطنه الأكبر، ومن هنا تتسع دائرة الحنين عند الشاعر شيء فشيء، فالشاعر يودُّ أن يقدم نفسه فداءً لهذه الأرض التي يتمنى العودة إليه، ففيها الأمن والأمان والاستقرار والاطمئنان وفيها أهله وأحبابه، فرؤية هذا الوطن بما يحويه من هواء عليل أحب إلى قلبه من الذهب، ولذا فهو ينادي هذه الأرض قائلاً:

فَدَيْتُكِ يا أرضَ الشآمِ فمنكِ لِي ... ثراءٌ على فَقْرٍ وسُكْرٌ بلا خَمْرِ
متى أطأُ التُّرب الذي هُو عِنْبُر ... وأملأُ من أرواحِ تلكَ الرُّبى صَدْرِي
وتأمَنُ نَفْسِي غُرْبةً أَجنيَّةً ... ولي بعد إِفْلاتِي التِفاتٌ من الذُّعرِ
فأقْضِي حَيَاتِي بَيْنَ أهْلي وتُرْبهمْ ... أَحبُّ إلى قلبي الوَجيعِ من التِّبر(٢)

ولم يكتف الشاعر بهذا من شدة حبِّه لوطنه، بل أراد من صاحبه أن يُحدِّثَه عنه في غربته، وكأنَّ الحديث عنه يُدخل على قلب الشاعر السعادة والفرح، ويدور الحوار بين الشاعر وصاحبه، ليبثَّ له في ثنايا حديثه المرارة التي عاناها في غربته ليروِّح عن نفسه، ويخلع عن كاهله هذه الآلام التي مُني بها، استمع إليه ينادي:

يَا صاحِ حِّدثنِي عن الوطنِ الذي ... فيه نَشَأْتَ وخُذْ حَدِيثاً عنِّي
خُضْتُ البحُورَ ولم أَخفْ أمواجَها ... وأقلُّ من عِشْرِينَ عاماً سِنيِّ

---

(١) – السابق ص ٢٤٨.
(٢) – السابق ص٢٢٢.

ورأيتُ في شرخِ الشـــبابِ كُهولتِي   وكذاكَ إِنْ كَثُرتْ ثِمَارُ الغُصْنِ(١)

ولعلَّ حبَّ الوطن عند الشاعر جزءٌ من عقيدته، يذكره في القرب والبعد، في العسر واليسر، هذا الوطن الذي ملك عليه جِمَاع نفسه ولبه، وكيف لا...؟ وهذا الحب مولود معه ينمو كل يوم في قلبه، فهو يعشقه منذ نعومة أظافره، ولو فيه ما فيه من شقاء وعذاب، فيجمع الشاعر بين وطنه الكبير ومسقط رأسه، ليوضح أن كل هذه البلاد تحت ظل وطن واحد، فهو لا يصبوا إلاَّ إليه، ولذا نجده يقول:

إلى وَطَني أَصْبُو وأَذْكُرُ في النَّوى   حَلَاوَة عَيْشٍ فيهِ تِذْكَارُهَا مُرُّ

وَمَا وطني إلاَّ بلادُ أُحبُّها   ولو أَنْبَتتْ شَوْكاً وفي غيرها بُرُّ

ومَا الحسنُ إلَّا ما تعشَّقهُ الفتى   وللقلبِ بَعْدَ العينِ في حُبِّه عُذْرُ

فيا حَبَّذا الحمراءُ مَهْدَ صُبوَّتي   ويا حَبَّذا الوادي ويا حَبَّذا النهرُ[٢]

وعاطفة الشاعر نحو وطنه هي التي جعلته يبدع في التعبير عن تجربته، ويطلعنا عمَّا في داخل نفسه من شدة تعلُّقه بوطنه.

٢-?لحنين ? ??لأهل ??لأحبة ??لأصدقا?:

ولا ريب في أن الحنين إلى الأهل والأحبة والأصدقاء يحدث نتيجة للغربة الوطنية، فعندما يبتعد الفرد عن أهله وأصحابه يشعر بوحدة مؤلمة، تكاد تقضي عليه فيحاول الخلاص منها، وذلك بتذكر الأيام السابقة والعهود الماضية التي قضاها على أرض الوطن بين الأهل والأحباب، والحنين إلى الوطن والأهل من ميزات العاقل فقد قيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى أوطانها مشتاقة، وإلى مولدها توَّاقة[٣]، وقال آخر: إذا كان الطائر يحنُّ إلى أوكاره فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه[١]، وقد ارتبط الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الأهل

(١)- السابق ص ٤١٥.

(٢) – السابق ص ١٧٩.

(٣) – المحاسن والمساوئ ص ٣٠٣.

(١)- الحنين إلى الأوطان ص ٩.

والأحبة، ولماذا يحبُّه الإنسان ويشتاق إلى الأيام الماضية ؟ أليس من أجل الأحباب والأهل ؟ لهذا ارتبط الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الأهل والأحبة.

وحنين الشاعر إلى أهله أكثر ما يتمثل عنده يتمثل في حنينه لأَمِّه وأخته اللتين تركهما وراءَه في قريته " قرنة الحمراء "، فلا يزال لسانه يلهج بذكرهما، متمنياً أن يلتقي بهما، ويتبادلا الحنو والقبلات التي حُرِم منها في غربته، فهو في غربته ينظر إلى الأمهات اللائي يقبلنَّ أولادهنَّ، ويأسى أَشدَّ الأسى؛ لأنَّه يعيش بلا أمٍّ، فكأن حياته أقفرت بدونها، فهو بعيد عنها يشتاق إلى قبلاتها وقبلات أخته، ثم يوضح عن طريق التصوير حالته النفسية عندما يرى أمَّاً تقبل ولدها حُنَّواً وعطفاً عليه، وهو في أَمسِّ الحاجة إلى الحنوِّ والعطف، فنجد أنفاسه سريعة متلاحقه بسبب حزنه، وما أصابه من ألألم والحسرة على فراق أهله، استمع إليه يقول:

أَلَا عَلِمتْ أُميِّ هُنالكَ أنَّني ... أعيشُ بلا أُمٍّ وهذا هو الفَقْرُ
إذا قبَّلتْ أمٌّ جبينَ وليدِها ... وفي عينِه خَمْرُ وفي قَلْبها سُكْرُ
وإن عانقتْ أُختٌ أخاها فضمَّها ... وضَمَّتْهُ حيناً وهي ترنو وتفترُّ
شَرِقْتُ بريقِي غَيْرةً وتَحَسُراً ... وقُلْتُ أَهذا الكِسرُ ليس له جَبْرُ
لقد ظمِئتْ نفسي إلى بَرْدِ قُبْلةٍ ... هي الماءُ للنَّفْسِ التي عَيْشُها قَفْرُ
أحنُّ إلى قُبلاتِ أُمٍّ ثمينةٍ ... وقُبُلاتِ أُخْتٍ فَوْقَها رَفْرَفَ الطُّهرُ(٢)

ولا يزال الشاعر يتقلب على جمرات الغربة التي لمست عواطفه وقلبه، فإذا ما جنَّه الليل هاجت عواطفه؛ لأنَّه يقضي حياته بعيداً عن وطنه وأهله وأحبابه وخلانه، وكأنِّي به يقف على شاطئ البحر ويترقب بزوغ الفجر في ليلة حالكة الظلام ، غارت نجومها واشتدَّ بَرْقُها ورعدُها، يتلهف إلى العودة والنظر إلى الشاطئ الآخر كي يرى أمَّهُ من وراء هذا البحر المائج، وهو يعلم ما تعانيه بسبب فِراقه لها، ووجلها عليه، تجد هذه المعاني كائنة في قوله:

أَقُولُ إذا ما الليلُ هَاجَ عَواطِفِي ... بلا وطنِ أقضِي الحياةَ ولا أَهْلِ

---

(٢) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٧٩ – ١٨٠.

هُنَــاكَ وراءَ البحـــر أُمٌّ حَــزِينَةٌ		تُكَـابِدُ آلامَ الشَّــهدَاتِ من أجْلِي
سأَحْمِلُ عبءَ العيشِ رفقاً بقلـــبِها		فأُحْسَبُ من أهــلِ الفضيلةِ والفَضْلِ
أَبِيــتُ أُنــاجي طَيْفَهـا قائلاً لـــها		رُوَيْدَكِ إِنِّي كالأُولى فعلوا فِعْلِي(١)

وإذا ما انتقلنا من حنين الشاعر لأُمِّه وأهله إلى حنينه لأصحابه وأصدقائه وجدناه يمزج هذا الحنين بأمنياته وتطلعاته، وتجده يطلعك على آماله الكامنة داخل نفسه التي ذهبت أدراج الرياح، فأصابت القلب بجراحات متعددة، جراحات لا يقوي على تضميدها، فنفسه تتقلب بين الرجاء والحرمان من رؤية أحبابه الذين فرقتهم الأيام، وبعدت بهم الدار، فما زالت النفس عطشى مشتاقة إلى هذه الديار فما أتعسها من غربة فرقت بين الأحبة والخلان، استمتع إليه يقول:

وفي النفسِ آمالٌ نثرتُ هَبَاءَها		وفي القلْبِ جُرْحٌ قاتِلٌ ليس يُضْمَدُ
فما أَتعسَ النَّائِي المحبِّ الذي يَرَى		أحبَّتَــهُ تحــت الثَّرى وهو مُفْردُ
وَتَحْرِمُهُ الأيَّــامُ حتَّـى زيـــارةً		ونَظْـرةَ مشتاق يرى الــدَّارَ تَبْعُدُ
هُنَــالك لــي أرضٌ عَبَـدْتُ جَمَالَها		ومـــا أَنـــا إلاَّ العَاشِــقُ المتعَبِّدُ
عليهــا أحبَّائي الــذين قُلُوبُـــهمْ		تُجــاذِبُ قَلْبــاً عَــاجِزاً يتمرَّدُ
فَلَا كـــان نـــأيٌ قَصَّر العمرَ طُـــولَهُ		وفيه المُنَى والحبُّ والعَزْمُ تَنْفدُ (٢)

ثم يستجلب الشاعر أخاً يستبكيه معه متمثلاً الشجاعة والقوة، فنفسه موزعةٌ بين الضعف أحياناً والقوة أحياناً أخري، وكثيراً ما تلمس هذه النفس الضعيفة تشعُّ إشعاعات نورانية في صدق العاطفة وتوهج الشعور، فإذا ما أفاقت من هذا الضعف فلا تكاد تشم منها إلاَّ الكبرياء والعظمة الذي لا طائل من ورائهما، ولا أدل على ذلك من أبياته التي يقول فيها:

تَعــالَ أَخــي نَمْـزُجْ دمُـــوعاً أبيَّةً		فكُـــلُّ غـــريبٍ آنـسٌ بغـــــريـــبِ
بُلِينـا فراعَ الـــناسَ حُسْنُ بلائِـنا		ورُبَّ اغتــرابٍ للشَّقــاءِ جَـــلُـوبِ

---

(١)- السابق ص ١٨٧.
(٢)- السابق ص ٢٢٦ – ٢٢٧.

كذَلـكَ تُشْقي الـــمرءَ نَفْسُ أَبيَّـةٌ ... وَقَلْـبٌ يـرى لـذاتهِ بنـــدُوبِ
على الحُرِّ أَنْ يَلْقى الخُطُوبَ بحَزْمِه ... ففي الخَطبِ تَجْرِيبٌ لِكُلِّ لَبِيبِ(١)

انظر إلى البيتين الأول والثاني ثم انظر إلى البيتين الثالث والرابع واعقد بينهما موازنة تجد نفسَ الشاعر متقلبة متأرجحة لم تثبت على حالةٍ واحدة، ثم تجد صوته في البيتين الأول والثاني يختلف عن صوته في البيت الثالث والرابع، ولعله في ذلك معذوراً؛ لأن نفس الإنسان في الغربة لم تثبت على حالة واحدة.
وقد تأثر الشاعر بامرئي القيس في الأبيات السابقة،و ذلك عندما حضرته المنية ورأى عند موته قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح جبل يقال له "عسيب"فسأل عنها فأُخبر بقصتها فقال:

أَجارتَنا إِنَّ المزار قريبُ ... وإِنيِّ مقـــيمٌ ما أَقام عسيبُ
أَجارتنا إِنَّا غريبان هَاهُنا ... وكُلُ غريبٍ للغريبِ نسيبُ(٢)

وقد ذكرت فيما سبق أن الشاعر نفْسُه عطشى إلى مَنْ يحنو عليها، ويعطف على حاله ويأسى لغربته، فإذا لم يتوفر له ذلك،صرخت نفسه بأعلى صوت لها قائلة....

أَليسَ حَرامــاً أَنْ تُضَيَّعهُ النَّـوى ... فيقضى شَهيداً وهو للخَطْبِ حَمَّالُ ؟
فَمَنْ ذَا يُعَــزِّيهِ ويَشْرَحُ صَـدْرهُ ... ببسطةِ كَفٍّ عِنْدَها تَحْسُنُ الحـــالُ
لقد سَارَ يُخْفِي سائِلاً من جُروحِهِ ... فـأضْجَرهُ حِـلٌّ وأضْنَــاهُ تِرْحَالُ(١)

٢- ?لحنين ? ??لصبا ??لشبا ?:

(١) – السابق ص ١٥٦.
(٢)– ديوان امرئ القيس ص٣٥٦ ٠
(١) – السابق ص ٢٣٠.

الحنين إلى الصَّبا والشباب لون آخر من الحنين إلى الماضي، إذ يحنَّ الشاعر فيه إلى أيام الشباب وزمن اللهو والنشاط(٢) و " الشباب باكورة الحياة وإبان صفو العيش، ووقت التمكن من الأغراض، وزمن الطرب والغزل، وفيه استقامة القوى الطبيعية وجريها على أحسن حال وأتم انتظام، والتصرف في ملاذ النفس، واقتضاء الجوارح للحركات والنشاط على التمام، وفيه تقوى خيالات الهوى، وتنبسط الروح وتنبعث الهمم" (٣). ويتمثل هذا اللون عند الشاعر في مخاطبته لمحبوبته وتذكيرها بأيَّام الوصال والود واللقاء، مذكراً إيَّاها بالأماكن التي كانت موضع لقائهما معاً، مستخدماً الطبيعة إحدى الوسائل الأساسية في طرائق تعبيره، ولذا نجده يستخدم البدر والموج والرمل والحقل والغصون والغاب، وكل هذه وسائل ساعدت الشاعر على تأدية المعنى الذي أراده دون أن يُجهد نفسه، استمتع إليه يخاطب محبو بته فيقول:

إذا هاجك البدر المطلُّ على الحمى ... وللموج فوق الرمل نوح وإعـــوال
وجـاءت مـع الأرواح ريَّاً حـــقولنا ... وحفَّت غصون الغاب والماء سيَّال
قفي حيث كُنَّا نلتـــقي كل لــيلةٍ ... ونذرف دمعاً دونه الملك والمال(٤)

ولا يزال الشاعر يخاطب محبوبته التي حزنت لغربته وفراقه، فيسرِّى عنها حزنها وشجنها، لكن مما زاد هذا الحزن عندها رؤية الأماكن التي كانت موضع اللقاء بينهما، هذه الأماكن التي تجعل عينيها تذرفان بالدمع، فالمكان عامل وعنصر مهم كثيراً ما لهجت به ألسنُ الشعراِء في القديم والحديث؛ لأنه موطن الذكرى الحبيبة إلى النفس ولحظات السعادة والأماني والهمس المشحون بالعاطفة والأحلام المستقبلة، نجد هذه المعاني كائنه في قول الشاعر:

أَشَجَاكِ نُورُ النَّجــمَةِ الـزهراءِ ... فبكيتِ من ذِكْرَى حَبيبِ ناءِ
وحَلَّتْ لكِ الأَحلامُ عِنْدَ بُحَيْرةٍ ... والبدرُ يَـرْفـعُ بُرْقُعَ الظلماءِ

---

(٢)– – ينظر مقال الحنين عند العرب : رابح لطفي جمعة ص ٩٢ عدد ٢ ١٩٧٩ المجلة العربية.

(٣)– التذكرة الفخرية للصاحب بهاء الدين المنشي الأربلي ص ٥٠ ت د/ نوري القيسي.

(٤)– ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ٢٣١.

والرَّوضُ نَوَّاحٌ لهــبَّاتِ الصَّبا فكَأَنَّهُ يبـكي على الغُرَبــاءِ
إنِّي عهدتُكِ ذاتَ قــلبٍ شاعرٍ خَفَقَــاتُهُ كقصائِد الشُّعَراءِ(١)

ثم يأتي الشاعر ويعمم الخطاب بعد أن خصّصه في الأبيات السابقة لمحبوبته مستفسراً عمَّا إذا كانت الغربة سبباً في سعادة النفس أوفى شقائها ؟، ولا ريب في أن هذا السؤال تختلف الإجابة عليه تبعاً للظروف والملابسات التي يجدها المغترب في غربته كُلٌّ حسب حالته، فقد ينعم بسببها أُناسٌ ويشقى آخرون، فالشاعر يطلب أن يجيبوه عن سؤاله، وليته أقام حواراً بينه وبينهم؛ لتأخذ أبياته في الرُّقى والتصاعد النفسي شيئاً فشيئاً حتى يطلعنا على معاناته الحقيقية، لكنه في كثير يدمج الطبيعية وكأنها تتحدث بلسانه، استمع إليه يقول:

أَحِبَّتنا هَلْ في النَّوى يَنْعَمُ البالَ ؟ وقـد كَثُـرَتْ حَوْلـي عُداةٌ وعُذَّالُ ؟
تَذكـرَّتُ أَيَّـامَ الحمــى متشوِّقاً وقَلْبي مع الأغْصَانِ في الرَّوضِ مَيَّالُ
فهَلْ تَذكرُوني في لـــيالي رَبِيعِنا وقَدْ شاقَنِي منهـا ضبـابٌ وأَطْلالُ (٢)

وفي النهاية يلقي الشاعر بالسَّلامِ على ربوع أحبته، هذه الربوع التي تُذَكِّره بأيَّام الصفاء والهناء، ومن قديم سلَّم الشعراء على الربوع ودعوا لها بالسقيا والسلامة، فلا حرج أن يُسلِّمَ الشاعر على ربوع أحبته، وبخاصة إذا كانت هذه الربوع يسكنها من تهواه نفسه ويتعلق بها قلبه، وتُسعده بالنظر إليها والعودة إلى أحضانها كلُّما فركته عجلة الحياة، فيرى فيها الأُنس والجمال، وتنجذب نفسه وتشتاق إلى هذه الربوع وهو في غربته، وفي غربته يكون:

منَّا السَّلامُ على ربوعِ أَحبَّةٍ مِنْها ومِنْكُنَّ الــهوى يُدْنِينا
أَنتُنَّ فــيها أُنْسُها وجَمالُها وبكُنَّ تُجذَبُ أَنْفسَ النَّائِينا (١)

ولا ريب في أن الشاعر **عندما** تحدث عن الغربة سواء كانت غربة نفسية أم غربة وطنية، أطلق العنان لنفسه لتعبر عمَّا يختلج في داخلها، ولتظهرَ لنا تقلباتها التي تتأرجح بين الأمل واليأس تارة وبين الكبرياء والقوة وإثبات الذات

(١) – السابق ص ٢٣٨.
(٢) – السابق ص ٢٣٠.
(١)– السابق ص ٢١٢.

تارة أخرى، فالذي يقرأ ديوان الشاعر يجد نفساً تطمح إلى الرفعة وعلو المكانة وطلب الغنى والثروة، والتي ظن أن يحقق رغباته في البعد عن وطنه والهجرة إلى المهاجر الأمريكية كي ينال من الشهرة وذيوع الصيت، مما تحقق لبعض أقرانه من الشعراء، ثم نجد هذه النفس يعتريها الضعف واليأس والقنوط في بعض الأحيان، وذلك حينما تتناثر الآمال وتذهب أدراج الرياح، كل هذه التموجات النفسية أنتجت لنا صوراً شعرية ناطقة، يضع الشاعر فيها قلبه وعاطفته وروحه أمام القارئ ليقرأ صفحات قلبه، ويحنو على روحه المعذبة ونفسه المضطربة المتقلبة، وروحه الحائرة.

?لفصل ?لثا ?
?لـد??سة ?لفنيـة
?لمبحث ?لأ? ?
?لصو???لشعرية – ?لظو?هر ?لأسلوبية

??لا: ?لصو???لشعرية.

لا ريب في أنَّ الصورة لازمة في الأسلوب الأدبي، ولا يمكن الفصل بينها وبين الفكرة عند الشاعر حين ينشئ إبداعه، ولذا فهي أقوى عنصرٍ من عناصر الأسلوب الأدبي، إذ إنها تؤلف لتجسيم الفكرة أو لتعميق الإحساس بالعاطفة.

والصورة عند شاعرنا تحمل ألواناً متعددة وصنوفاً شتى تسير في حنايا أشعاره، فتلمس من خلالها قلباً حائراً، ونفساً موزعة في متاهات الحياة، وعيناً شاردة ترنو هنا وهناك، وفكراً تائهاً متردداً مقبلاً على الحياة تارة ومدبراً عنها تارة أخرى، وهذه خاصية من خصائص شعر الغربة عند الشاعر، فعندما تطالع – أيهُّا القارئ الكريم – نتاج الشاعر في الغربة تجد صوره يشوبها شيء من القتامة، ويلفها سياج من الغموض والكآبة، وكيف لا..؟! والغربة معاناة وألم، وتشتد معاناتها إذا كانت غربة عن صغار تشتاق النفس إليهم، ولا يملُّ العقل من التفكر في أحوالهم ومستقبلهم، وعن أمٍّ وأخت طالما لهج لسان الشاعر بذكرهما، وناداهما كثيراً في أشعاره، وصوَّر ألمه ومعاناته بسبب بعده عنهما في قالب شعري شجي، ترى فيه إدماء قلب الشاعر وقروح عينه، فلا تملك إلاَّ أن تأسى له وتشفق على حاله.

والصور التي تؤلف لتجسيم الفكرة أو لتعميق الإحساس بالعاطفة تشتمل على عناصر عدة منها:

أ– <u>التشبيه:</u> قال عنه المبرد في الكامل: " التشبيه جار كثيراً في الكلام – أعني كلام العرب – حتى لو قال قائلٌ: هو أكثر كلامهم لم يبعد "(١).

---

(١)– الكامل في اللغة والأدب للمبرد ص ٥٦٣ ط مؤسسة المختار للنشر والتوزيع .

وقال أبو هلال العسكري في الصناعتين: " التشبيه يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً "[١] وقد سار المحدثون على نهج القدماء، ولم يبتعدوا عنهم في صورهم.

ومن صور التشبيه التي تلفت الانتباه عند شاعرنا، هذه الصورة الشجية التي صوَّر فيها " ليلة الشوق " بـ " أرملة " فقدت زوجها الذي ملأ عليها حياتها أملاً وبهجة، وبفقدها له فقدت السعادة والهناء والراحة والاستقرار، فلم تجفَّ لها عين، ولم يسترح لها قلب، ولم يخفت لها صوت، ثم مما زاد الصورة جمالاً من ناحية المضمون وألماً وتقززاً من ناحية الشكل تصويره لهذه الأرملة وهي محلولة الشعر ناشرة له في صورة غير مرتبة ولا مهذبة، مصحوبة بالنواح والعويل والبكاء في قوله:

وليلةُ الشوق تسري مثل أرملةٍ — محلولة الشعر منواحٍ إلى الأبدِ[٢]

ثم انظر إلى قوله " منواح إلى الأبد " أَلا يدلنا هذا عمَّا يعتمل في قلب الشاعر من ألم وحسرة وحرارة شوق وندم مستمر على غربته وفِراقه لأهله ووطنه؟!.

ألا تدلنا هذه الأبدية على أن الشاعر يكتوي بهذا الشوق الذي كاد يحرق كبده، ولن تطفأ جذوة هذا الشوق، ويخمد هذا الحريق إلاَّ بعودته إلى أحضان وطنه؛ ليحس فيه بدفء الحياة، ويحتسي فيه كأس الراحة والهناء ؟!.

وهاك صورة أخرى، يصور فيها الشاعر حنينه إلى قريته " قرنة الحمراء " فهو يحنُّ إليها كما يحنُّ الطائر إلى وكره، لكن أيَّ طائر؟، لقد صور الطائر بأنه مقصوص الجناح، وهذا قمة العجز واليأس، فكأن الشاعر كهذا الطائر الذي قُصَّ جناحه فلا يقدر على الطيران ليصل إلى عشه، ثم رؤية هذا المقصوص لهذه الطيور التي تأوي إلى أوكارها فيها من الحسرة والألم الذي أصاب قلبه وألمَّ بحويا نفسه، انظر إلى هذه الصورة في قوله:

أحــنُّ إلى الحمـراءِ صبّـًا مؤرَّقاً — فأُخرجُ من قلبي القصائد اخراجا

كما حنَّ مقصوصُ الجناح وقد رأى — طيـوراً إلى الأوكار ترجع أفواجا[٣]

---

(١)– الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٣٤.

(٢)– ديوان أبي الفضل بن الوليد، ص ٢٠٤.

(٣) – السابق ص ٢٤٥.

وهناك صورة خان التوفيق فيها الشاعر، وهذه رؤية تقبل الأخذ والردَّ، وهذه الصورة كائنة في قوله:

وذات دِلال ودَّعتني عشية هنالك تحت الدُّوح والدَّمع هَطَّالُ
فقلت وقد قلَّبتُ خداًّ كأنَّه قرنفُلة فيها ندى الصبح جوَّالُ
رويدكِ لا تبكي على الراحل الذي يسير وملءُ النفس عزم وآمالْ(١)

أو في لحظات الوداع التي تكاد الروح فيها تفارق الجسد، وتتصاعد فيها الأَنْفاس وتتلاحق، وتخفق فيها القلوب وتضطرب يكون تشبيه خدَّ صاحبته بالقرنفلة ؟!! أعتقد أن هذا التشبيه لا يتواءم مع طبيعة الموقف، ولا مع هذه اللحظات الصعبة المحزنة المحرقة، اللَّهم إلاَّ إذا كان الشاعر لم يعبأ بلحظات الوداع والفراق، وهذا يتنافى مع ملمحي الوداع والرحيل السابقين.

ب – **الاستعارة:** وهي أبلغ من التشبيه وأفضل منه وأوجز تركيباً؛ لأَنَّها مبنية على تناسيه مبالغة في المعنى مع حذف أحد الطرفين، لتأليف صورة جديدة تحمل السامع على الانبهار بها وانشغاله بروعتها، والاستعارة فيها إعمال فكر، وشحذ ذهن وقريحة في استخراجها، ولذا كانت من الوسائل القوية في اختراع الصورة وابتداعها من جزئيات تتنافر فيما بينها وهي متفرقة ولكن خيال الشاعر يخترع الملابسات بينها، ويشدُّ عناصرها برباط وثيق فيوفق بين التعارض في الأشياء، ويجمع بين التناقض في الأجزاء.

ومن الصور التي تتمثل فيها الاستعارة بمعناها العام قوله:

عجبتُ لهذا الدَّهرِ كم أَحْوَجَ الفتى إلى تَجْرُباتٍ عِنْدها يَنْحَنِي الكِبْرُ
سَقانِي بكأسِ الفقرِ طوراً وتارةً بكأسِ الغِنى حتى اسْتَوى الخيرُ والشَّرُّ(٢)

فقد صوَّر الكبرَ في صورة إنسان ينحني لتجربات الدهر، وصورة الانحناء هنا توحي بالانهزامية أمام تقلبات الأيام، لكن انظر إلى الانحناء الذي يتحقق في

(١)– السابق ص ٢٣١.
(٢)– السابق.

الكبر، أليس أولى به أن يتحقق أو يكون أكثر تحققاً فيما دونه ؟ ثم لما العجبُ والدلائل والبراهين على تقلبات الدهر أكثر من أن تحصى وتُعدد، والإنسان بين هذه التقلبات تصيبه لحظات من السعادة ولحظات من الشقاء، وما أكثر لحظات الشقاء، ثم أنظر إلى تصوير الشاعر المعنوي " للفقر والغنى " في صورة المحسوس المشاهد، واحتسائه بكأس الفقر تارة وبكأس الغني تارة أخرى، ويبدو لي أن صورة الكأس في هذا الموضع توحي بالنفور والاشمئزاز، فكونه يجعل للفقر كأساً وللغني كأساً ويسقيه الدهر بهما فهو يكنى عن حياته التي يسعدُ فيها بعض الأوقات ويشقى في أوقات أخرى، ثم إني لا أوافقه على المساواة بين الخير والشر، وذلك لأَنَّ الخير شيء ترغب فيه النفس وتقبل عليه، والشَّرُّ شيء تأباه الطباع السليمة وتنفر منه النفوس التي جلبت على حبِّ الخير فكيف يساوي بينهما؟! أعتقد أن هذه المساواة مصدرها تشاؤم الشاعر وعدم حصوله على ما كانت تتمناه نفسه فسوَّى بين خيرها وشرِّها.
ثم أنظر إلى هذه الصورة التي يقول فيها الشاعر:

سأَذْكُرُ من ليلى لَياليَّ والهَوى ... يُمَزِّقُ من أَثْوابِ صَبْري وعفَّتِي(١)

هذه صورة استعارية بديعة بناها الشاعر من بدايتها على الرمز " فليلى " في أول البيت رمز لمحبوبته، ثم أتبعه بالاستعارة الكائنة في هواه الذي يمزق أثوابه، لكن أيَّ الأثواب يمزق ؟! إنه يمزق أثواب صبره وعفته، وجدير بنا أن نقرَّ بأن الشاعر كان من أصحاب الغزل المتنوع، لا يركن إلى لون واحد منه، وإنما يخوض في كل ألوانه وأشكاله، ثم انظر إلى جمال تمزيق الصبر، وكأن الهوى لم يبق له خلاقاً حتى اخترق صبره وعفته، كي يفعل بهما الأفاعيل، وتعبير الشاعر بالفعل المضارع " يُمَزِّقُ " فيه دلالة واضحة من الشاعر على مكابدته لهذا الهوى، كما يوحي باستمرارية التمزيق، فمكابدة الهوى ودوام هذه المكابدة ومجاهدتها يقابلها استمرارية في التمزيق، لكن ليت الشاعر لم يأت بحرف الجر

(١) – السابق ص ١٦٢.

" من " الذي فصل به بين الفعل " يمزق " وبين المفعول " أثواب صبري وعفتي " ليكون التمزيقُ حاوياً لكلً منافذ الصبر والعفة عند الشاعر، ولو أنَّهُ قال: " يمزق أثواب صبري وعفتي " لكان أفضل بالنسبة لمكابدة الهوى.

ج – <u>الكنايـة:</u> هي عدم التصريح أو ترك التصريح، وهي في اصطلاح أهل البلاغة " لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى الأصلي"(١) أو هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل هذا المعنى من المذكور إلى المتروك (٢)، وشاعرنا لم يبتعد عن المعنى الذي أورده البلاغيون للكناية، بل جال في هذا المعنى، إلاَّ أنه قلَّ استخدامه له في شعر الغربة والحنين، وذلك لأَنَّ طبيعة هذا الفن تحتاج إلى التصريح والإبانة لا إلى الكناية والتعريض، وهذا لا ينطبق على بقية أغراضه فمن أشعاره التي وردت فيها الكناية في موضعها، وأدت وظيفتها البيانية، وأطفت على المعنى جمالاً وبهاءً، وزادت من الالتفات إليه وطول النظر فيه قوله:

لَقَدْ ذَبُلتْ أَغْصَانُنَا في رَبِيعها   ولكنْ أُرجيٍّ أَنْ يُعَاوِدَها النَّضْرُ(٣)

فكنى عمَّا أصاب جسده من هزال وضعف، وما أصاب أطرافه من خورٍ بقوله " ذبلت أغصاننا " ثم قيدَّ هذا الذبول لهذه الأغصان بأنه " في ربيعها " وهو كناية عن الشباب، والشباب المعهود فيه القوة والفتوة والنضارة والإقبال على الحياة وترك القنوط واليأس، إلاَّ أن تحولاً طرأ على التعبير الشعري للبيت باستخدامه حرف الاستدراك " لكن " التي توحي بهذا التحول الشعوري الذي طرأ على اتجاه الخواطر النفسية عند الشاعر، فيدّبُ فيه الأمل بعد اليأس والقنوط، وتعلوه النضارة بعد الذبول، واستخدام الفعل " أُرَجيّ " المضارع المضعف العين

---

(١) –علم البيان د. عبد العزيز عتيق، ص ٢٠٣ ط دار النهضة العربية بيروت.

(٢)– معجم البلاغة العربية د. بدوى طبانة ص ٧٧٦ – ٧٨٦ ط منشورات جامعة طرابلس كلية التربية.

(٣) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٨٠.

ليدل دلاله معنوية وحسيّة على اجتهاده في عودة النضرة والحياة إلى الأغصان، علاوة عمّا فيه من التجدد والاستمرارية.

وقد فصَّل الشاعر ما أجمله في البيت السابق في بيتين آخرين يقول فيهما، مخاطباً أمه ومخبرها عمَّا أحدثته الغربة في نفسه ممَّا كان له أثر واضح على جسده، وهي شكوى أليمة من الشاعر مشحونة بالندم واليأس في قوله:

أيَـا أُمُّ هـذا النَّـائي لـم يُبْـقِ لَـذَّةً ... لِقَلْبِي، فإنِّي قـد عُرِيتُ نَضِيرا

فأَصْبَحَ غُصْنِي يابساً في ربيـعهِ ... وأَصبحَ زَهْرِي في الهواءِ نَثِيرا(١)

فقد استخدم الشاعر من أدوات النداء " أيا " التي ينادي بها البعيد، وكأنِّي به أسمع صوته يعلو حتى يصل إلى درجة الصراخ، بل إلى أعلى من ذلك، وهذا الصراخ لم يكن مصدره لسانه فقط، بل كان مصدره كل أحشائه تصرخ من داخله وتتألم، وتودُّ الخلاصَ من البعد المكاني الذي أورثها الألم والعذاب ومَنْ ينادي ؟ إنه ينادي أمه ليفرغ شحنة الألم التي ضيقت عليه مخارج أنفاسه ويخفف من وطأة هذا الضيق الذي كبل أحشائه، ومما يؤكد المعنى السابق إشارته إلى النائي في قوله " هذا النائي لم يبق لذة لقلبي "، وقد استخدم الشاعر اسم الإشارة " هذا " الذي للقريب ليلفت الذهن وينبه العقل إلى أن هذا البعد قريب منه يودَّ أن يتخلصَ منه، ويبذل في هذا السبيل مساعي كثيرة كي يبعده عنه، فكأن بينه وبين هذا البعد مجاهدة حتى يفترق أحدهما عن الأخر، وفيه تجسيد لهذا النائي الذي أذهب عن الشاعر لذة الحياة، وفي قوله " فإنِّي قد عُريت نضيرا " كناية عن الضعف الذي أحدثه النأى له، ثم يأتي البيت الثاني موصولاً بالذي سبقه في معناه وبخاصة في الشطر الأول منه في قوله " وأصبح غُصني يابساً في ربيعة " وهو كناية عمَّا أُصيب به بسبب البعد بالضعف وهو في ريعان الشباب، والشاعر يلح على هذا المعنى كثيراً، والدليل على ذلك أن

(١) – السابق ص ٢٣٩.

البيت السابق على هذين البيتين ذكر فيه نفس المعنى، وكنىَّ عن الضعف وما أصابه من العجز، وعدم القدرة على تحمله بنفس الأسلوب، وكأن الشاعر يجد في ذلك متنفساً عمَّا يجول بخاطره، يريح من خلاله النفس لتهدأ ثورة شعوره التي لا تلبث أن تثور مرات ومرات، وهذا يدل على مدى تقلبات النفس المصحوبة بالحساسية الزائدة في الغربة، وكذّاَ في البيت الثاني في الشطر الثاني في قوله " وأصبح زهري في الهواء نثرا" كناية عن شعره الذي تناثر في الهواء، فلا تكاد تسمع صدى له وكان الشاعر يأمل أن يسير شعره في الآفاق، تتغنى به الإنس وتترنم به الطير، وتعبر به الرياح البحار والمحيطات، فيجري على كل لسان، ولكن هذا الأمل ذهب أدراج الرياح وعفت آثاره الشعرية ودرست، ولم تجد من يُلملم شعثها، على الرُّغُم مما في هذا الشعر من وجدان صادق، وعاطفة جيَّاشة، وأسلوب رائق، وصور بديعة، لا تكاد تتوفر عند كثير من الشعراء الذين ذاع صيتهم وشرَّق وغرَّب في الآفاق ذكرهم.

ثانيا: ?لظو?هر ?لأسلوبية ? شعر ?لغربة ??لحنين

١ – ?لتكـر??:

وهو " يرسخُ الشيء في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة "[١] وهو يستخدم لتثبيت المعنى في ذهن القارئ والسامع على السواء؛ وذلك لأنَّ اللفظ المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية[٢].

وقد استخدم الشاعر " التكرار " في شعر الغربة والحنين بكل مظاهره، فقد يلجأ إلى تكرار حرف بعينه ويؤثره على بقية الحروف كما في قول الشاعر مخاطباً محبوبته:

قفي حيثُ كُنَّا نلتقي كُلَّ ليلةٍ ونذرفُ دمعاً دونَه الملكِ والمال[٣]

فقد كرر الشاعر حرف " النون " أربع مرات في البيت مما يوحي بالتلاؤم والتناسب والانسجام والتآلف الذي يحدث تناغماً شعورياً داخل البيت، وهو بدوره يحقق تناغماً موسيقياً بمجاورة النونات لبعضها، وبخاصة في قوله في الشطر الأول " حيث كُنَّا نلتقي " فتكاد تسمع همس اللقاء في ليل الصيف الصافي الخالي من الرقيب والوشاة والحَّساد، ولأنه حُرم اللقاء في غربته فتذكره يوحي بالراحة والاطمئنان ويبعث على الأمل والتذكر لأيَّام السعادة والهناء.

وقد يكرر الشاعر كلمة في البيت الشعري الواحد أكثر من مرة للاستئناس بها، والرغبة الشديدة منه إلى ذكر المكرر بعدها، وخاصة لو أن هذا المكرر كان يمثل بالنسبة له حياة ناعمة رغدة تتوشح بالهناء والسعادة، وهو يتشوق لإعادة هذه الحياة مرَّة ثانية ورؤية هذه الأماكن التي جلبت له السعادة، نجد ذلك واضحاً في قوله:

فيا حبذا الحمراَءُ مهد صبوتي ويا حبذا الوادي ويا حبذا النَّهْرُ[٤]

---

(١)– روح الاجتماع ص ١٣٩ تأليف الدكتور. جو ستاف لوبون ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ط المطبعة الرحمانية.

(٢)– السابق ص ١٢٩.

(٣)– ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ٢٣١.

(٤)– السابق ص ١٧٩.

فكرر فعل المدح " حبذا " مقروناً بياء النداء ثلاث مرات في البيت، وهذا يشعر بشوق وتلهف الشاعر إلى رؤية هذه الأماكن، ومنها " قرنة الحمراء " قريته ومسقط رأسه، ومنها الوادي الذي كان يقضي فيه مع مَنْ أحبَّ أوقات سعادة وهناء، ومنها النهر الذي يمثل العطاء بكل معانيه، وبفقده لهذه الأشياء في غربته الموحشة لم تكن سلواه الوحيدة إلاَّ تذكرها ونداءَها بـ "يا " التي للبعيد، ليبين أن هناك بحاراً ومحيطات ومسافات تفصل بينه وبين هذه الأماكن وتحجب الرؤية عنه، وعبَّر بفعل المدح " حبذا " ليوضح لنا أن هذه الأماكن قريبة إلى قلبه، ونفسه تتوق إلى رؤيتها ويعقد الأمل على ذلك، وقد تحقق أمله وعاد مرَّة ثانية إلى أحضان وطنه، وكحَّل عينيه برؤية هذه الأماكن.

وقد يكرر الشاعر ضميراً، وضمير المتكلم من الضمائر المحببة إلى النفس، فقد يروِّح الشاعر به عن نفسه، ويجد فيه بغيته وبخاصة إذا أراد الشاعر أن يتحدث عن نفسه ويُكبِرُ من شأنها، ويُعْظِمُ من قدرها، ويضعها في مستوى لا يرقى إليه غَيْرَها حتى يشدَّ انتباه السامع ويلفت نظره إلى المكانة التي وضع نفسه فيها ويُطلعك على:

أنَا الكوكبُ السَّيارُ في ليلةِ النَّوى ... تُنيرُ سَبيلَ التَّائهين أَشعَّتِي
أنا البلبلُ الصِفَّارُ في روضة الهوى ... تَطِيرُ قُلوبُ العاشقين لصفِرتي
أنَا العِنْبرُ الفوَّاحُ في كلِ مجلسٍ ... تُعَطرُ أثوابَ الحرائِرِ نفحتِي
أنَا العاشقُ العفَّافُ في كلِّ خُلْوَةٍ ... تَركْتُ العَذارَى مُعْجَبَاتِ بعفَّتِي
أنَا المزهرُ الرَّنانُ في كفِّ مُطربٍ ... ملائِكةُ الجناتِ تشتاقُ رنَّتِي
أنَا ما أنا إلاَّ فؤادٌ مُعَذَّبٌ ... ونفسٌ تَرَى في الموتِ أكبرَ لذَّةٍ[1]

فقد كرر الشاعر ضمير المتكلم " أنا " سبع مرات في الأبيات السابقة، وفيه دلالة عمَّا يعتمل في نفس الشاعر من فخر واعتزاز بالنفس، وإكبار لها، ثم أتى بعده بالاسم المعرف بـ " أل " المقرون بالصفة الموافقة له، ليدل على اهتمام

(١)– السابق ص ١٦٣.

الشاعر بالبناء الشعري وتمكنه من أدواته، ثم التوافق والتلاؤم والتناسب بين الصفة والموصوف، في " أنا الكوكب السيَّار – أنا البلبل الصفَّار – أنا العنبر الفواح – أنا المزهر الرنَّان – أنا العاشق العفَّاف، والذي يلفت الانتباه أن هذه الصفات أتت مضعَّفة العين مما يحدث انسجاماً موسيقياً ونغماً رائقاً خالياً من الفجوات عند الانتقال من بيت إلى بيت، وتعلو هذه النغمة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الذروة في البيت الأخير بسبب استخدام الشاعر لضمير المتكلم، ويمكن لنا أن نستبدل أماكن الأبيات الخمسة الأولى بعضها موضع بعض فكل بيت يصلح أن يقوم مقام الآخر، لكن البيت السادس لا يمكن تغيير موضعه، لأنَّ الدفقة الشعورية تكاد تكون منصَّبة في ثناياه، لذا كرر الضمير " أنا " مرتين فيه، ثم هو يعتبر نهاية طبيعية لما سبقه من الأبيات، فبعد أن حدد الشاعر ماهية نفسه على طريق الفخر، عاد ليقرر حقيقة كثيراً ما خالطت قلبه ونفسه، فيسأل ويجيب على نفسه " أنا ما أنا إلاَّ فؤادٌ معذَّبٌ " يرى اللذة الكبرى في الموت، فلم يعطينا الفرصة كي نتعرف على كنهه ونلتمس حقيقة نفسه.

ومن ظواهر التكرار التي استخدمها الشاعر في صياغة أبياته، استخدامه للتكرار على طريق الاستفهام بـ " كيف " وتكرار السؤال بها يدل على الحيرة والاضطراب، ولعلك تحس هذا الاضطراب وتلمس هذه الحيرة في قوله:

فَبعْدَ غيابي كيْفَ حَـــــــالةُ أَهْلِنا ... وكيفَ العذَارَى الباسماتُ عن الدرِّ

وكيف الحمى والحقلُ والغابُ والمربى ... وكيفَ ليالي النورِ والطيبِ القطْرِ(١)

ولعل درجات الاستفهام يختلف بعضها عن بعض، فهو في البيت الأول يستفهم بـ " كيف " عن شيء واحد " كيف حالة أهلنا – كيف العذارى –." أمَّا في البيت الثاني فتراه يستفهم بـ " كيف " عن عدة أشياء في الشطر الأول، وثلاثة أشياء في الشطر الثاني، وهذا يدل على قلق الشاعر واضطرابه وولهه وحيرته تجاه مَنْ يستفهم عنهم، وكأنه بكثرة الاستفهام وتكراره بـ " كيف " وكثرة ورود المستفهم عنه في الكلام أراد ان يتخلص من هذا القلق الذي ألم به، والحيرة التي كبلت نفسه

(١)– السابق ص ٢٢٣.

وأتعبت عقله، وودَّ لو يستريح إذا ما كانت هناك إجابات عن استفهاماته المتكررة، وفي البيتين دلالة أخرى وهي أن المستفهم عنه له أهمية كبيرة في نفس الشاعر، وإلاَّ فلما استفهم ؟! ثم استفهم عن الأهم فالمهم، ولذلك اختلفت درجات المستفهم عنهم في البيتين، فلما كان الأهل قريبين منه ملتصقين بنفسه قدَّمهم على غيرهم من العذارى والحمى والحقل والغاب... الخ.

ثم نجد المستفهم عنه متلاحقاً بعضه تلو بعض لم يفصل فاصل بينهم، وهذا دليل على أَنَّ الشاعر أراد أن يستفهم عن أكبر قدرٍ ممكن خوفاً من أن يتفلت منه شيء يغفل أنْ يستفهم عنه.

٢ – ?لأمـــــر:

وهو كما عَّرفه البلاغيون " طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ويقصد بالاستعلاء أن ينظر الآمر لنفسه على أنَّه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يوجه الأمر إليه، سواء أكان أعلى منزلة منه في الواقع أم لا "[(١)] والذي ينظر إلى أسلوب الأمر الذي أتخذه الشاعر كوسيلة من وسائل التعبير عن محنته نجد أنه سار في اتجاهين:

الأول: الأمر بمعناه الحقيقي، وهو الطلب على وجه الاستعلاء والإلزام، وفيه تجد صيغة الآمر قوية توحي بالعظمة والعلو والرفعة من صاحب الأمر إلى المأمور، وهذا يظهر بوضوح في المرحلة الأولى قبل رحيله عن وطنه، وقبل وداعه لأهله وذويه، ولعلك تحسُّ بهذه القوة – قوة الآمر – عندما تقرأ قوله مخاطباً أمَّه، وهي تريد أن تثني عزمه وترده عن الرحيل:

دعيني أوفِّ المجدَ يا أمُّ حقَّه   وأقضِ شريفاً مثل جار عسيب[(٢)]

وكأن بينه وبينها مجاذبة وقوة منه تسيطر على عقله، وهدفاً يريد تحقيقه ويودُّ ألاَّ يصدَّه أحد أو يقف حجر عثرة يحول دون تحقيقه، ولذا استخدام الفعل " دع " بمعنى " اترك " وهذا الفعل يحمل في طياته صورة الحوار الذي دار بينه وبين أمه، ومما زاد هذا الفعل إيحاءً ودلالةً على المعنى المقصود إردافه بالفعل

(١) – علم المعاني ص ٥٨ د. عبد العزيز عتيق.
(٢)– ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٥٧.

المضارع " أوفِّ " الذي يحمل في داخله ضمير المتكلم " أنا " الأمر، ولم يفصل بينهما بفاصل، ثم عطف عليه بفعل مضارع آخر " وأقضى " ولم يكن من القوة بمكان، ولم يرق إلى منزلة الفعل " أوفِّ " ولعل القوة التي نالها الفعل الأول " أوف " جاءت من مجاورته لفعل الأمر " دعيني " وفيه دلاله على الكلية بمعنى أن الترك ترك شامل، أي دعيني وما أحمل من نفسٍ وعقل وقلب وقالب.

وقد اختلف أسلوب التعبير بفعل الأمر، واختلفت دلالته تبعاً لاختلاف الموقف والأداء ومادة الفعل واحدة لم تتغير عن سابقتها، ولعلك تدرك هذا الاختلاف بطول النظر وإمعان الفكر وكثرة التأمل، عندما تقرأ قول الشاعر مخاطباً محبوبته:

دَعِي القلبَ يَلْهُو بالرجاءِ وبالهوَى   وصلِّـي لعـلَّ اللَّهَ لِلْحَبْلِ وَصَّالُ (١)

لقد كان للترك في البيت السابق هدفاً يرنو إليه الشاعر ويطلبه بشوق وتشوف كي يحصل عليه ويحققه، ومن أجل ذلك كانت قوة الآمر في الأداء وتجاذبه مع المأمور، لكن في هذا البيت الترك لم يكن تركاً بالكلية، وإنما الترك مقصور على القلب وحده دون غيره وغاية الترك في البيت الثاني مختلفة، فالترك فيه غايته اللهو بالرجاء وبالهوى، ولعل هواه ورجاءَه في تحقيق مجده الذي طلبه في البيت الأول، وإن كنت لا أجزم بهذا الحكم؛ لأنَّ الموقف مختلف فهو هنا غيره هناك.

والثاني: الأمر فيه خرج عن معناه الحقيقي السابق إلى معنى الاستغاثة والعون والتضرع والرحمة، وذلك لاختلاف الموقف وقرائن الأحوال، نجد ذلك واضحاً في استخدام الشاعر لصيغة الأمر التي كررها ثلاث مرات في قوله:

فقُـولي للأُولَـى أَرْجُـو نَـدَاهُـمْ   وأَهْوى من منازِلهم جِوارا
فَتَاكُم ضَاعَ في المَنْفَى فَـــمُدُّوا   له الأيْدِي وسَلُّـوه غِرَارا(١)

---

(١) السابق ص ٢٣١.

(١) – السابق ص ١٢١.

واستخدام الشاعر لفعل الأمر هنا وتعدده ليدل على مدى ما أصابه من يأس وتعذيب وتشريد في غربته، ويأمل أن يتخلص مما أصابه بسرعة خاطفة، فجاء بفعل الأمر مقرونا بالفاء مرتين في قوله " فقولي – فمدُّوا " ولعلك تشم من خلال البيتين السابقين غطرسة الشاعر وكبرياءَه بالرغم مما ناله من ضياع وتشريد في غربته، وذلك من خلال تعبيره بلفظه " فتاكم " التي تدل على القوة والشموخ، وإسناد الفتى إلى ضمير المخاطبين يدل على قربهم منه وقربه منهم.

ثم يصل الضعف بالشاعر إلى أعلى درجاته، عندما تجده يستعطف أخاً له ويطلب منه أن يجلسا سوياً ويذرفا دموعهما الأبية، فكل منهما يأنس بصاحبه في دار الغربة فيقول:

تعال أخي نمزج دموعاً أبيةً فكُلُّ غريب آنسٌ بغريب(٢)

والذي يلفت الانتباه في البيت وصف الدموع بأنَّها أبية، " تعال أخي نمزج دموعاً أبية، وفيه دلالة على أنَّ هذه الدموع صعبة القياد، لم تذرف إلاَّ لأمرٍ عظيم، وهل هناك أعظم من مصيبة الغربة ؟ ولعلك تتخيل صورة مزج الدموع بعضها ببعض، ثم أتى بلفظه الدموع جمعاً ليدل على كثرتها وغزارتها، ولم تقتصر الدموع على دموع العين وحدها، فقد تسبقها دموع القلب التي تعمل عملها في تجاويف الشعور الإنسانية فتتواصل بعضها ببعض فتنتج دموع العين.

٣ – ?لند??:

وهو: " طلب الإقبال بحرف نائب مناب " أدعو " ملفوظاً به أو مقدرا "(١)، وقد استخدم الشاعر من حروف النداء " الهمزة، وأيا، ويا " إلاَّ أنه استخدم الهمزة التي ينادي بها القريب لنداء البعيد وتنزيله منزلته، وذلك عند ندائه لأمِّه، وفي ذلك إشارة إلى قربها من القلب وحضورها دائماً في الذهن، وأنَّها لا تغيب عن خاطره في قوله:

أَأُمَّـاهُ حَيَّـاكَ الرَّبِيـعُ نَضِـيرا مُحَيَّاكِ فِي قَلْبِي يَلُوحُ مُنِـيرا

---

(٢)– السابق ص ١٥٦.

(١) – معجم البلاغة العربية، ص ٨٧٠ بدوي طبانة.

أَأُمَّاهُ لا تَبكي على فَرْخكِ الذي نَأى فَغَدا منه الجناحُ كَسِـــيرا
أَيا أُمُّ والأَمْوَاجُ تَفْصِلُ بَيْنَـــنا فأَسْمَعُ منها في الظَّلام هَدِيرا(٢)

كان حقَّ الشاعر أن ينادي أمه بـ " يا " التي للبعيد إلاَّ أنه نزلها منزلة القريب من الروح والقلب والعقل فجاء بالهمزة التي للقريب، ومع أن الهمزة يقصر معها النفس الشعري، ولا تعطي الشاعر سعة للتنفيس عمَّا يعتلج بداخله، ويا النداء يتوفر معها هذا التصاعد الشعري ألاَّ أنه استعاض عنها بالتضعيف في عين المنادى، وذلك لاختزان النفس ثم إطلاقه يتصاعد حتى يصل إلى منتهاه مع ألف " أُمَّاهُ " وهائه المضمومة التي ينغلق معها الفم شيئاً فشيئاً حتى ينغلق على آخره فتهدأ ثائرة الشاعر، ويلقى عن كاهله حملاً طالما عانى منه، وتكرار النداء " أأماه " مرتين ليدل دلالة أكيدة عمَّا يدور في صدر الشاعر من حنين وتمن العودة إليها ليلقى بنفسه في أحضانها ليحس بدفء الحنان الذي فقده في غربته.

ثم كرر النداء في البيت الثالث مستخدماً من أدواته " أيا " لنداء البعيد والمنادى واحد في الأبيات الثلاثة وهي " الأم " لكن دلالة الأداة تختلف، فالهمزة في البيت الأول والثاني أدت ما تؤديه " الياء " التي للبعيد وزيادة، ولو أَنَّك وضعت " يا " موضع الهمزة لما أحدثتْ ما أحدثته الهمزة بمجاورتها لهمزة " أم " حيث لم تحدث فجوة بين الهمزتين في تلاحق النفس الخارج من الصدر أمَّا إذا وضعت " يا " فسيحدث انقطاع للنفس والفصل بين الأداة " يا " والمنادى " أم " لكن النفس مع الهمزة متواصل لم ينقطع إلاَّ عند انتهاء النداء.

وتكرار النداء ثلاث مرات متوالية مع التنويع في استخدام الأداة، ليدل على تمكن الشاعر من استخدامه لهذه الأدوات ووضعها في المواضع التي تتناسب معها لتؤدي الغرض الذي يقصده من ورائِها.

(٢)– ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ٢٣٩.

والشاعر نوَّع في استخدامه لأدوات النداء، فاستخدم منها الهمزة وأيا، ثم استخدم " يا " لنداء البعيد على سبيل الحقيقة بمعنى أنه استخدم الأداة في أصل وضعها في قوله منادياً أمه:

يا أمِّ والموج هذا يؤرقني   والريح زَفَّارةٌ خفاقةُ البردِ(١)

وعلى الرغم من استخدام الأداة في وضعها الأصلي، إلاَّ أَنَّك تسمع من خلالها أنين الشاعر وشكواه وحكاية حاله التي أراد من خلالها أن ينبه أمه ويلفت نظرها إلى معاناته الأليمة ومكابدته الشديدة في ديار الغربة، ليستجلب عطفها وحنوها فعسى أن تنظر إليه نظرة أو تبعث له رسالة تضمد جراحه وتشفي نفسه، وتلملم شعث أفكاره المضطربة التي لا تقرُّ أو تستقرُ.
وقد جاء الشاعر بأداة النداء مقدرة وملفوظاً بها في بيت واحد، لكن الموقف اختلف والنداء لم يكن منه لغيره، بل إنَّه موقف معكوس عن الموقف الأول، فهو في الأبيات التي ذكرت كان النداء منه لأُمِّه، أَمَّا في البيت التالي فالنداءُ من أمه له، وهو موقف رجاء وتمنٍ، عسى أن ينصرف أو يصرف نفسه عمَّا انتواه، تجد ذلك في قوله على لسانها:

بُنيَّ يمين الله هل لك عودةٌ   وِداعك هذا يا بُنيَّ مذيبي(١)

تلحظ العطف والحنو المختلط بالحزن والمرارة في نداء أمه له بأداة نداء محذوفة تقديرها " يا بنيَّ " ثم إضافته إلى نفسها ليدل على قربها منه والتصاقه بنفسها، فهو بعضها، فبرحيله كأنَّ بعضها فارق بعض، ثم هذا الاستفهام الذي يتلاحق مع النداء من الأم لدليل على الوله والحيرة والخوف من سوء المصير على قلبها الصغير وجرحها الكبير، ثم تكرار النداء مَّرة ثانية، والتصريح بأداة النداء " يا " مسبوقة باسم الإشارة " هذا " الذي للقريب ليدل على قرب الرحيل الذي يذيب مهجة القلوب بالضعف الشديد والألم الغزير، ثم تأمل عجز البيت

(١)– السابق ص ٢٠٤.
(١)– السابق ص ١٥٧.

لتر مدى الجرح والألم الذي سبَّبه هذا الرحيل لهذه الأم التي رحل ولدها ففقدت نعيم الحياة ولذتها.

ثم يتحول الشاعر من ندائه لأُمِّه ونداء أُمه له، لينادي صاحبه بـ " ياء التي للبعيد في قوله:

يا صاح حدثني عن الوطن الذي فيه نشأتَ وخذْ حديثاً عنيِّ (٢)

والنداء هنا خرج عن معناه الحقيقي الذي يقصد من ورائه الطلب إلى معنى مجازي وهو التحسر والتوجع والندم على فراقه لوطنه، فيودُّ من صاحبه أن يتجاذبا معاً أطراف الحديث ليقصَّ كُلُّ منهما قصة حياته في وطنه ليسري عن نفسه ويُسلِّى عنهما وطأة الحزن التي ألمت بهما، وسرت في أعضائهما لعلَّ كُلاًّ منهما يجد متنفساً ينفس به عمَّا أصابه، وفي نداء الشاعر لصاحبه بـ " يا " التي للبعيد التي نابت مناب الهمزة، فلا يكاد يعقل أن يجري الحديث بينهما وكل منهما بعيد عن الآخر، فنزَّل القريب منزلة البعيد، وذلك لغفلته وشرود ذهنه، وعدم التحكم في أهواء نفسه، فهي في كل حالاتها تتغلب على عقله وفكره، ولعلك تسمع صوت ندائه المرتفع الذي خرج منه دون أَنْ يشعر به، فكأنه مختزن في عقله الباطن من زمن بعيد، فعندما وجد الفرصة أمامه سانحة للخروج خرج دون إعداد أو ترتيب.

<u>٤ – الاستفهام:</u>

وهو من أنواع الإنشاء الطلبي، والمراد به طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة من أدوات الاستفهام.

وقد استخدم الشاعر أدوات الاستفهام ونوَّع بينها، بل وغَلَّب بعضها في الاستفهام بها على بعض، وكثيراً ما استخدم أسلوب الاستفهام في معناه المجازي لا الحقيقي، ونتعرف على دلالة الاستفهام عنده من قرائن الأحوال والإيحاءات التي يستخدمها عن طريق الألفاظ، فتارة نراه – وهو قليل – يستخدم

(٢)- السابق ص ٤١٥.

الاستفهام بمعناه الحقيقي، وهو طلب الفهم والعلم بشيء لم يكن معلوما، لكن الغالب في استخدامه لأسلوب الاستفهام أنه استخدمه بمعناه المجازي، وقد يكرر الاستفهام أكثر من مَّرة في بيت واحد أو في بيتين متتاليين، ليلفت انتباه السامع والقارئ ويثير في العقل نوعاً من التفكير الدال على الحيرة، ويثير في النفس التأمل ليأتي حكمه بعد ذلك مبنياً على اقتناعه من داخل نفسه، ومن استخدام الشاعر للاستفهام الحقيقي قوله منادياً على أحبَّته مستفهماً منهم مسائلاً إيَّاهم، هل ينعمُ البالُ في النوى والبعد عن الأهل والأوطان ؟، بالرغم من كثرة العذال والأعداء !!.

أحبَّتُنَا هل في النوى ينعمُ البالُ   وقد كثرتْ حولي عِدَاةٌ وعذالُ

فهل تذكروني في ليالي ربيعنا   وقد شاقني منها ضباب وإظلالُ(1)

ففي البيتين السابقين أرى أن نفس الشاعر لم تصل إلى حد التوهج الشعوري، والإحساس بآثار الغربة، وهذا يظهر من خلال دلالات ألفاظه التي عبَّر بها، فنجده يخاطب أحبته في هدوء نفسي، ثم يستفهم هل يذكرونه في ليالي الربيع التي يشتاق إلى ظلها الوارف !!!.

لكننا نحس بصراخ الشاعر وضياعه في بلاد الغربة في البيتين التاليين، وذلك عندما يستحث ويطلب مَنْ يشرح صدره ويفك عنه أغلاله التي كُبِّل بها، ويربت على ظهره لعله يجدُ في ذلك راحة لقلبه وسلوا لنفسه، وذلك عندما يقول:

أليس حراماً أن تضيعه النوى   فيقضي شهيداً وهو للخطب حَّمال ؟

فمن ذا يعزيه ويشرح صدره   ببسطه كفٍّ عندها تحسن الحال ؟ (1)

ثم هذا الاستفهام الدال على الاستعطاف، ووصول النفس معه إلى الجهد والتعب والمشقة والضعف الذي تلمسه من خلال الاستفهام، لقد طالت الأيام على الشاعر والشهور، فأصبح الشهر يمثل في نظره عاماً، واليوم يمثل شهراً،

(1)– السابق ص ٢٣٠.

(1) – السابق ص ٢٣٠.

وفيه كناية عن ثقل الأيام والشهور التي يودُّ أن يتخلص منها بأيّ سبيل، فعندما نقرأ البيت نرى فيه صورة الشاعر التي يتمثل فيها الضعف بكل ألوانه بعد ما أعيته الحيل عن تحقيق مراده، وذلك في قوله:

فَهَلْ من رُجُوعٍ للغريبِ وَشَهْرُهُ كَعَامٍ على بَلْوَاهُ والْيَوْمُ كالشَّهْرِ (٢)

لكنك تحس بالصراخ المتواصل الذي لا ينقطع، والنفس المتلاحق في سرعة متناهية، عندما ينادي أُمَّه مستفهما منها في حيرة ووله وحزن سريع سرعة أنفاسه، ولم ينتظر الجواب لتلهفه إليه ليريح نفسه من وطأة الاستفهام، فأجاب عن نفسه، ثم أجاب عن أُمِّه أيضاً بلسانه فقال:

أيـا أمِّ والمـوج هـذا يؤرقنى والـريـح زفَّـارَةٌ خفّـاقة الـــبرد
ماذا تقولين ؟ أو ماذا أقـول إذا عاد البنونَ من المأوى ولم أعُدِ؟
لهفى على ولد يقضى الحياة بلا أمٍّ ولهفـى علــى أمٍّ بـلا ولـــد (٣)

وفي الأبيات السابقة تحس نفس الشاعر الحائرة المتقلبة التي لا تهدأ ولا تستقرُّ على حالة واحدة ثم هذا الاستفهام الذي تدرك فيه معنى التمني، فالشاعر يتمنى أن يعود إلى وطنه وترابه الذي عشقه من الصغر، فهو عنده بمثابة العنبر، كما أنه يتمنى العودة كي يملأ صدر بهواءٍ وطنه في قوله:

متى أطأ الترب الذي هو عنبر فأملأُ من أرواح تلك الربى صدري(١)

ومن خلال ما مرَّ نرى أن الشاعر نوَّع في أسلوب الاستفهام بين أدواته فاستخدم منها في التعبير عما يجيش في صدره " الهمزة، وهل " بكثرة و " مَنْ، ومتى، وماذا " بقلة، وهو بهذا لم يخالف القواعد المألوفة، وقد أحسن الشاعر في استخدامه لهذه الأدوات؛ لأنَّه وظَّفها في أماكنها الصحيحة التي عبر بها عمَّا في خاطره، واستخدام الشاعر في نظري لأسلوب الاستفهام يعدُّ بالنسبة لغيره من باقي الظواهر الأسلوبية التي مرَّت ضعيفاً من ناحية العاطفة والفوران والثوران النفسي الداخلي، ولذا انطبعت هذه الناحية من الضعف العاطفي على صياغة

(٢)– السابق ص ٢٢٣.
(٣)– السابق ص ٢٠٤.
(١)– السابق ص ٢٢٢.

أبياتـه، ولا أكاد أجزم بأن الشاعر كان يستخدم هذا الأسلوب ليكتمل بـه البنـاء الشعري من خلال التنويع والتلوين بين الأساليب العربية إذ إن تمكنـه من اللغة جعلـه يتلاعـب بهـذه الأسـاليب كمـا تلاعـب بعواطفنـا فـي توظيفـه لأسـلوب الاستفهام، ولعلك تشاركني في الحكم على الشاعر عندما ترى ضوء العاطفة الخافت في قوله:

ألاَ علمت أميِّ هنالك أننيِّ أعيش بلا أمِّ وهذا هو الفقر ؟(٢)

أنسى الشاعر صورة أُمِّه يوم وداعه وهي ممسكة ومتعلقة بأهداب ثيابه تتوسل إليه وترجوه بعدم الرحيل؛ لأنَّ قلبها يتمزق أسى وحزناً لفراقه، فما كان جوابه لها إلاَّ...!!

دعيني أوفِّ المجد يا أمَّ حقه وأقضِ شريفاً مثل جار عسيب(٣)

إن صورة الشاعر لم تفارق في يوم ما خيال أمه التي فطر قلبها لرحيله حزناً وحرقة عليه، وهذا ظاهر من خلال حديث الشاعر وحكايته عنها، ويبدو أن الشاعر كان متعلقاً بها تعلق الروح بالجسد، فإذا ما فارقها وابتعد عنها، فهو بذلك فارقت روحه جسده وعاش في غربته جسدُ بلا روح، وكم من مرة عاد ليستحضر هذه الروح ويعيدها إلى جسده المنهوك وقلبه المكلوم، وكلما أحس أنه اقترب منها بعدت هي عنه فتراه يتقلب بين الأمل تارة واليأس تارة آخرى، عَلَّهُ يجد في بارقة الأمل التي يراها ما يضمد جروحه ويشفي نفسه!!.

۞۞۞

(٢)– السابق ص ١٧٩.

(٣)– السابق ص ١٥٧.

المبحث الثاني

الموسيقى الداخلية – الموسيقى الخارجية

<u>أولاً: الموسيقي الداخلية.</u>

الموسيقي الداخلية في شعر الغربة والحنين عند أبي الفضل بن الوليد تتمثل في توظيفه لألوان البديع من جناس وطباق ومقابلة وتصريع، وتقسيم، وردٌ العجز علي الصدر، ولهذه الألوان من البديع تأثير كبير في موسيقي القصيدة " فالبديع في الحقيقة ما هو إلا تفنناً في ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم موسيقي، وحتى يسترعي الأذان بألفاظه كما يسترعي القلوب والعقول بمعانية، فهو مهارة في نظم الكلمات وبراعة في ترتيبها وتنسيقها[١] ".

ومن ألوان البديع التي استخدمها الشاعر وألح عليها كثيراً في أشعار الغربة والحنين.

أ – " <u>الجناس</u> " الذي دّبج به أشعاره واستخدمه بكل ألوانه، ومنه قوله:

أَلاَ فاذْكُرِينِي كلُّما خيَّمَ الدُّجَى　　وراعكِ في الوادِي دَوىٌّ من الهَدْرِ

أَلاَ فاذكرينِي كلُّما هَبَّتْ الصَّبا　　وشاقتكِ أَسمارُ الصُّبُّوةِ في الخِدرِ[٢]

فجانس الشاعر في البيت الأول بين " الوادي . دوىٌّ " وهو جناس ناقص، واللفظتان مختلفتان في المعنى، وفي البيت الثاني جانس بين " الصَّبا . الصبوة "، وهما متفقان في المعنى، لكن إذا تأملت الجناس في البيت الأول تحس بالتناغم الموسيقى والانسجام؛ وذلك لقرب اللفظين المتجانسين دون إحداث ثقل أو تنافر في السمع، وحسبك ما توحي به كلمة دوىٌّ من القوة غير الصاخبة، وإنما هي قوة محببة إلى النفس تألفها ولا تنفر منها، ثم الجناس في

(١) – موسيقى الشعر ص ٤٤ – ٥٤ د. إبراهيم أنيس.

(٢) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ٢٢٣.

البيت الثاني فيه من التناسب والتلاؤم وتحقق الغرض من خلال الكلمتين اللتين جرى فيهما الجناس وهما " الصَّبا والصبوة " فرياح الصَّبا تناسب مع أسمار الصبوة، فكلاهما فيه دلالة على المرح واللعب وترك الأحزان والهموم.

ومن استخدامه أيضاً للجناس قوله:

وإنِّي لأحيا بالتحيَّةِ عِنْدما   يَمُرُّ نَسِيمٌ للتحيَّةِ حَمَّالُ (١)

فجانس بين " لأحيا والتحية " والجناس وقع بين كلمتين متجاورتين، وهو بذلك يعطى الكلام قوة ويضفي على البيت رونقاً وجمالاً.

ومن الجناس الذي استخدمه الشاعر ودل على الوله والحزن الشديدين قوله:

كَمْ من حبيبٍ أَرَانِي اللِّـينَ في حَجَرٍ   وأيُّ قلبٍ لدَمعِ ا لوجدِ لم يَلِنِ
أَوْدعتُه نِصْفَ رُوحي يومَ ودَّعني   والنِّصفُ باقٍ معي للهَمِّ والحَزَنِ(٢)

فجانس في البيت الأول بين" اللين . لم يلن " وهما بمعنى واحد، ثم جانس في البيت الثاني بين " أودعته . ودعني" وهما لم يتفقا في المعنى، فأودعته بمعنى أعطيته، وودعني بمعنى تركني، ومما يلفت الانتباه ويستدعى النظر عند البحث عن المحسنات البديعية في شعر الغربة والحنين عند الشاعر، أن البيت الشعري عنده قد يحمل في طياته أكثر من محسن بديعي، وذلك كما في البيت الأول فنراه جانس بين " اللين ولم يلن " ومن ناحية أخرى يمكن أن يطلق عليه مصطلح بلاغي آخر هو" رد العجز على الصدر" حيث جاءت جملة " لم يلن " في آخر البيت، وجاء مصدرها " اللين " في حشو الشطر الأول، وهذا دليل علي براعة الشاعر ومعرفة ما توحي به هذه المحسنات من الدقة والبراعة وإحكام الصياغة، ثم حسن التقسيم أيضاً في البيت الثاني في قوله " نصف روحي والنصف باق" الذي جاء علي طريق العطف.

ومن استخدام الشاعر لهذا اللون البديعي أيضاً قوله:

متى أطأ الترب الـــذي هو عنبر   وأمــلأ من أرواح تلك الربى صدرى

(١) – السابق ص ٢٣٠.
(٢) – السابق ص ٤٣٢.

وتأمن نفسي غـــربةً أجنـــبيةً ولى بعد إفــلاتي التـــفات من الزعرِ
فأقضى حياتي بين أهلي وتربهم أحبُّ إلي قلبي الوجيع من التبر (١)

فالشاعر استخدم الجناس في البيت الثاني بين " إفلاتي والتفاف " وهما مختلفان في المعنى، وفي البيت الثاني جانس بين "الترب والتبر "وهما أيضاً مختلفان في المعنى، ويمكن أن يطلق علي الجناس في البيت الثالث مصطلح" رد العجز على الصدر "، وهذا يقرر ما ذكرته سابقاً من أن الشاعر قد يستخدم أكثر من محسن بديعي في البيت الواحد.

ب – كما استخدم الشاعر أيضاً لموسيقاه الداخلية (التصريع) وهو عبارة عن استواء آخر جزء في صدر البيت وعجزه في الوزن والروي والإعراب، واستعمال هذا اللون من البديع دليل علي قوة الطبع وكثرة المادة" (٢)، وغالباً ما يقع التصريع في البيت الأول من القصيدة وقلما يقع في ثنايا الأبيات، اللهم إلاَّ إذا أراد الشاعر الانتقال من غرض إلى غرض آخر في القصيدة الواحدة، ويكثر ذلك في القصيدة التي تعتمد علي الحوار القصصي، ومن الملفت للانتباه أن شاعرنا استخدم التصريع في أكثر مقدمات قصائده بصفة عامة، وقصائد الغربة بصفة خاصة، ومن ذلك قوله مخاطباً أخته:

دَعِيني أَمُتْ حُرَّاً يُخَلِّدُهُ الذِّكرُ فعِنْدِي سواءٌ طَالَ أَوْ قَصُرَالعُمْرُ(٣)

فعلى الرغم من اعتماد البيت السابق علي " التصريع " إلاَّ أنه أعتمد علي محُسن آخر بديعي هو " الطباق " في قوله " طال أو قصر ".
ومن استخدام الشاعر لهذا اللون أيضاً قوله في قصيدته التي بعنوان " أنَّات وجنَّات ":

إذا غابَ جسْمِي في الثَّري رَافِقِي ظلْي فَلَنْ جدي بَيْنَ الوَرَى عاشِقاً مِثْلِى(١)

---

(١)– السابق ص ٢٢٢.
(٢)– العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٧٣ – ١٧٤.
(٣) – ديوان لأبي الفضل بن الوليد ص ١٧٧.
(١) – السابق ص ١١٥.

ومنه أيضاً قوله:

سل الشواطئ ما أبقين من جسدي　　　وما عليهن من دمعي ومن كمدى(٢)

والتصريع يحدث توازناً موسيقياً وتناغماً بين شطري البيت الواحد، وخاصة في عروض البيت وضربه، وله دلاله علي مقدرة الشاعر الفنية، وموهبته المطبوعة غير المتكلفة، فالبيت الأول من القصيدة يعد اللبنة الأولى في بنائها الشعري فإذا ما أبدع الشاعر في وضع هذه اللبنة في موضعها الصحيح أبدع في وضع اللبنات الأخرى التي تبني عليها القصيدة.

ج – ومن المحسنات البديعية المعنوية التي وظَّفها الشاعر لموسيقاه الداخلية " الطباق "وهو أن يجمع الشاعر بين الشئ وضده في كلام واحد، وهذا المحسن البديعي ينبه الذهن إلى معرفة الأضداد، فإذا ما ذكر الشئ يترقب السامع أو القارئ نقيضه، والطباق يحدث توازناً في بناء البيت الشعري من ناحية، ومن ناحية أخرى يدلنا علي مدى تمكن الشاعر ومقدرته الفنية، وقد استخدم الشاعر الطباق بكثرة في شعر الغربة والحنين، ومن ذلك قوله:

إلي وطني أصبو وأذكر في النوى　　　حـــلاوة عيش فيه تذكارهاُ مُرٌ(٣)

فطابق بين " الحلاوة والمرارة "، ومنة قوله أيضاً:

عجبت لهذا الدهر كم أحوج الفتي　　　إلـى تجربـات عندها ينحنـي الكبـر
سقاني بكأس الفقر طوراً وتـــارة　　　بكأس الغنى حتى استوى الير والشرُّ(٤)

فقد استخدم الشاعر الطباق أكثر من مرة في البيت الثاني، فطابق مرة بين" الغني والفقر " وأخرى بين " الخير والشر" وعلاوة عُمَا في البيت من طباق إلأَّ أن نظرة الشاعر تجاه الحياة نظرة عابسة متشائمة سوداوية، وهذه الحياة التي تمثل دهره الذي يحيا فيه، وذلك من خلال مساواته بين الخير والشر، وهذا مما لا يتفق مع طبيعة النفس السوية في أي حال من الأحوال مهما تقلب بها الدهر وأنزل نكباته عليها.

(٢)– السابق ص ٢٠٢.
(٣)– السابق ص ١٧٢.
(٤) – السابق ص ١٨٠.

ومن المطابقة التي بدا الشاعر فيها متوازناً نفسياً قوله:

لقد سار يخفي سائلاً من جروحه فأضجره حلٌّ وأضناه ترحال(١)

فطابق بين "حلَّ وترحال " وإن كنت أقصد بالتوازي النفسي التوازي في الطباق، علي الرغم من أن مفردات البيت لا توحي بالتوازن الداخلي، الذي يسري داخل النفس، فإذا تأملنا الفعلين" أضجرة وأضناه " وما يوحي كل واحد منهما من القلق والحيرة والاضطراب، وثقل كل مفردة منها تأكد لنا مدي الاضطراب الداخلي لدي الشاعر.

د – ومن المحسنات المعنوية التي استخدمها الشاعر للتعبير عن معاناته، وتجربته الفنية " المقابلة " وهي ضرب من ضروب الحسن وإيضاح المعني، وذلك إذ أتت عفو الخاطر دون تكلف أو تصنع من الشاعر، أمَّا إذا أتت متعمدة فإنها تُذْهِبُ رونق الكلام وجماله، والشاعر استخدم المقابلة التي تثير الذهن وتشحذ الفكر وتحي التوقع في النفس في شعره بكثرة ومنها قوله:

رأيتُ حُظوظَ النَّاسِ تَمْشِي سَرِيعةً ومازالَ حظِّي أَعْسَرُ اليدِ مُعْقَدا(٢)

فقابل بين حظوظ الناس وكيف أنها تأتى سريعة، وبين حظه مقطوع اليد المقعد الذي لا يتحرك ولا يتحقق، وفوق ذلك فقد خلع الشاعر علي المعنوي صورة الحسي فجعل الحظوظ تمشي وكأنها إنسان مبيناً هيئتها، ثم شخص حظَّهُ وجعله مقطوع اليد مقعد، وفي هذا كتابة عن عدم تحقق الآمال وقطع الرجاء في تحققها.

ومن المقابلات التي وظَّفها الشاعر لتعبير عمَّا يجيش في نفسه، وما يعتري إحساسه من الوله والحزن لبعده عن وطنه وأهله، مقابلاً بين لياليه التي يقضيها في بلاد الغربة، ولياليه التي قضاها في بلاده، مبيناً ثقل هذه الليالي في غربته، وسرعة هذه الليالي في بلاده بقوله:

لَياليَّ فـي هَذِى البلادِ طويلةٌ وكانتْ ليالي الشَّرْقِ عاجـلةً تَسْرِي
هنا لا تَقرُّ العينُ بالنورِ إنَّمـا هُناك الدُّجى أشهى إلي مـن البدرِ(١)

---

(١) – السابق ص ٢٣٠.

(٢) – السابق ص ١٨٢.

وكذا في البيت الثاني مقابلة بين هنا وهناك والنور والدجى، وهذه المقابلة تطلعنا عما يعتمل في قلب الشاعر من ألم وأنين وحنين ورغبة في العودة التي قد تضمد جروحه التي سالت في دار غربته.

هـ – وقد استخدم الشاعر هنا محسناً بديعاً عوَّل في أكثره علي اللفظ دون نظر إلى المعني، لذا جاءت أبياته في الغالب غير مؤدية لمراده، وغير معبرة عمَّا يعتلج في نفسه، وعمَّا يعتصر في صدره من حزن وألم، وهذا المحسن هو " رَدُّ العجز علي الصدر" وهو " أن يردَ الشاعر أعجاز الكلام علي صدوره، فيدل بعضها علي بعض، ويسهل استخراج قوافي الشعر، ويكسب البيت الذي يكون فيه أبَّهةَ، ويكسوه رونقاً وديباجة، ويزيده مائية وطلاوة "(٢)

وقد تتحقق جماليات هذا المحسن في بعض الأبيات التي استخدمها الشاعر وقد لا تتحقق في أبيات أخرى، فيكون رَدُّ العجز علي الصدر في الأبيات لم يف بالغرض المنشود، وهذا المحسن قد يأتي في قصيدة ما وقد لا يأتي، بل من الممكن أن يكرره الشاعر أكثر من مرَّة في أبيات قصيدة واحدة، وذلك حسب دفقته الشعورية، وحالته النفسية، ومزاجه الشخصي، وقد تأتي قصيدة أخرى خالية من هذا المحسن، وهذا ما رأيت عليه قصائد الغربة والحنين عند الشاعر.

ويتلون ويتنوع هذا المحسن فقد تُرَدُّ الكلمة التي في عجز البيت علي الكلمة التي تأتي في صدر البيت، أو صدر الشطر الأول من البيت، وقد تكون هذه الكلمة في حشو الشطر الأول، وقد تكون في آخره وقد تكون هذه الكلمة في صدر الشطر الثاني، فهذه الصور الكائنة في هذا المحسن تعطي فرصة للشاعر أنْ يدبِّج أبياته ويخلع عليها من جانب الحسن ما أمكن، وقد أستخدم الشاعر هذا المحسن بكل صوره، ومن ذلك قوله:

سُعَادُ قِفِي نجلُ السيُوفَ لثأرِنا　　　وراحةِ أرْواح الجدودِ الغواضبِ

(١)– السابق ص ٢٢٢.

(٢)– العمدة لابن وسيق ج ٢ ص ٣ بتصرف يسير.

فَيُضْرِبُ هذا الشعبُ حتى يري الهُدي ويرجعُ بسَّاماً لذكري المضارِبِ [1]

فاستخدم الصورة الأولي من صور هذا المحسن فردَّ العجز " المضارب" علي الصدر " فيضرب " ومنه قولة مخاطباً محبوبته:

هَبِيني قليلاً من وِصالِك إِنَّني لأَقْوَي علي حَمْلِ الكوارثِ بالوصْلِ [2]

وقوله:

أنا المزهر الرنَّانُ في كفِّ مطرب ملائكة الرحمن تشتاق رنتي [3]

ومن قوله مخاطباً صديقاً له:

نَصَحْتُكَ فاسْمَعْ ياأُخَيَّ فإِنَّني أري الدَّهرَ نبَّاشاً قُبُورَ الأَحبَّةِ
يُذَبِّـلُ أَزهارَ الشبابِ بنفحةٍ ويُطْفِئُ أَنْوار الغرامِ بنفحةِ [4]

ومنه أيضاً قوله:

صَفَا الفلكُ الأبْهَى يَبِينُ هِلَالُهُ وأَطْلَعَ فلكى من يديَّ هِلَالِيا
رَعى اللَّهُ في شطِّ الجزيرةِ لَيْلةً نَسِيتُ بها مَجْدِي وعلمي وماليا [5]

ومن خلال ما مرَّ نري أن الشاعر استخدم هذا المحسن البديعي بكل صوره وأشكاله، وهذا يدل علي تفوق الشاعر ومقدرته وغزارة مفرداتة، وتوظيفها توظيفاً يخلع عليها من خلاله صوراً رائعة، ويكسوها جمالاً وجلالاً.

و– كما استخدم الشاعر " حسن التقسيم" وهو" أن يستقصى الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به"[1]، وهو من الألوان التي تساهم في موسيقي البيت، وتضاعف من

---

(١) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ١٨٩.

(٢) – السابق ص ١٨٥.

(٣) – السابق ص ١٦٣.

(٤) – السابق ص ١٦٢.

(٥) – السابق ص ٢٤٤.

(١)– العمدة ج ٢ ص ٢٠.

تنغيمه، وقد استخدم الشاعر هذا المحسن، ولكن بقلة في أبياته التي عبر بها عن غربته وحنينه لوطنه، واستخدمه في معرض حديثه عن قضية الفقر والغنِّي، والكرم والبخل، والإفصاح عن وجهه نظرة فيهما فيقول:

لَعَمْرُكَ مابعْتُ الفضيلةَ بالغِنى ... فكَمْ عَرَضٌ يَفْنَى وقَدْ بقى الجوهرْ
فرُبَّ غنىٍّ فَقْرُهُ في يسَارِه ... ورُبَّ فقيرٍ بالمكارمِ قد أَيْسَرْ
ورُبَّ بخيلٍ مَالُه كوديعَةٍ ... فبتُّ أرى الأغْنَى علي حِرْصِه الأفْقَرْ(٢)

ووجهة نظر الشاعر في أبياته السابقة مضطربة إلا في البيت الأول، أمَّا إذا نظرت إلى البيت الثاني والثالث فستجد هذا الاضطراب عندما يحدِّثُك ويخبرك بأن فقر الغني كائن في يساره وعطائه وسعة جوده وكرمة، وأن الفقير قد يكتسب الغني واليسار من فرط كرمة وجودة، وهذا ما يفهم من ظاهر البيت، أمَّا إذا أمعنا النظر فيه فسنجده يحمل معان أخرى في طيات ألفاظه، وهي أن الغني إذا استخدم المال وبذله في غير وجهه الصحيح كان ذلك سبباً في فقرة، وأن الفقير غنٌي بمكارم أخلاقه وجوده، وبهذا يستقيم المعني، ويخلو الكلام من الاضطراب، والشطر الثاني من البيت الثالث يعد تكراراً للشطر الأول.

لقد زار الشاعر الأندلس في إحدى سفرياته، فوقع في نفسه حزن وألم لما حلَّ بها، فقد تغيرت معالمها، بل تغير أهلها فزرف عليها من دموعه عندما ودعها فكانت هذه الأبيات.

بأندلسٍ هَامَ الفؤادُ وإنَّهُ ... فؤادُ مُحِبٌ صادقِ الخَفَقاتِ
تعشَّقتُها طفلاً وشاهدتُها فتىً ... و حيَّيتُها بالشعرِ والبَسَماتِ
وودَّعتُها يَوْماً وِداعي لموطِني ... وجُدْتُ لها بالدَّمعِ والزَّفراتِ(١)

انظر إلي حسن التقسيم في البيت الثاني والثالث التي أحدثت المعطوفات فيهما تناغماً موسيقياً يزداد هذا التناغم كلما كررت قراءة هذه الأبيات.

ومنه قوله:

---

(٢) – الديوان ص ١٩٧.

(١) – السابق ص ١٦٦ – ١٦٧.

وَهَا أَنا بَيْنَ المجدِ والحبِّ حائرٌ فهذا دَعا خَلْفِي وذلكَ قُدَّامى[٢]

ولم يزل يلهج لسان الشاعر بالمجد الذي جعله قدَّامه والحبَّ خلفه، فاسم الإشارة هو الذي أحدث هذا التقسيم بواسطة حرف العطف، ويبدو لي من خلال ما مرَّ من أبيات وقصائد في شعره الغربة والحنين عند الشاعر، أن المجد الذي طلبه ولم يدركه، بل ولم يعلم أنه أدركه كائن في هذه القصائد والأبيات التي عبر بها عمَّا يجيش في صدره، وعما يعتلج في فؤاده فشعره وأعماله . من وجهة نظري . هو مجده الذي طالما تحدث عنه في كل حالاته، في نومه ويقظته وحله وترحاله وسعادته وشقائه.

ثانياً: . الموسيقي الخارجية.

والموسيقي الخارجية تعتمد علي الأوزان والقوافي، ومدي مناسبتها للموضوع الذي يتحدث الشاعر عنه، فلا يصلح الشعر بدونها، إذ إنها تحقق الانسجام بتكرار تفعيلات معينة تتعوَّدُ الآذان علي سماعها وترددها فيتحقق التناغم السمعي الذي يطرق الوجدان، وتهتز النفس عند سماعه، ولذا فإن "موسيقي الشعر تزيد من انتباهنا وتضفي علي الكلمات حياة فوق حياتها، وتجعلنا نحس بمعانيها كأنما تمثل أمام أعيننا تمثلاً عملياً واقعياً، هذا إلى أنها تهب الكلام مظهراً من مظاهر العظمة والجلال، وتجعله مصقولاً مهذباً تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه، وكل ذلك مما يثير من الرغبة في قراءته وإنشاده وترديد هذا الإنشاد مراراً وتكراراً "[١].

والموسيقي الخارجية من أوزان وقوافٍ هي التي تميز الشعر عن غيره من سائر الفنون الأخرى، إذ لو جاء الشعر خالياً منها لا يسمى شعرا؛ لأنَّه بذلك فقد عنصراً مميزاً من أهم عناصره، وبذلك . أيضاً . يفقد نواحي من نواحي الجمال والتي تتوافر فيه لو اعتمد علي الوزن والقافية إذ " للشعر نواحٍ عدة للجمال

(٢) – السابق ص ١٥٩.

(١) – موسيقى الشعر ص ١٦ يتصرف يسير.

أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ، وانسجام في توالي المقاطع وتردد بعضها بعد قدر معين منها، وكل هذا ما يسمى بموسيقي الشعر" (٢).

والوزن الشعري أحد العناصر الرئيسة في بناء القصيدة وأهمها، فالشعر يعتمد اعتمادا أساسيا علي الوزن، فهو الذي يحقق التناسب والتناغم بين تفعيلات البيت من ناحية وبين الألفاظ التي بني عليها البيت الشعري من ناحية أخري، ثم هو يحقق التواؤم بين كل ما سبق والفن الشعري الذي قصد الشاعر إليه.

وشاعرنا سار علي البحور الخليلية المعروفة في كل أشعاره، وخاصة في شعر "الغربة والحنين" فهو من الشعراء المحافظين الذين ينتمون إلي عمود الشعر العربي، ولم يخرج عن هذا الإطار في كل أشعاره، ولكنة لم يستخدم كل البحور الشعرية في التعبير عن تجربته شأنه في ذلك شأن كل الشعراء الذين لم يوظفوا البحور الشعرية جميعها في خدمة فنٍ واحد من فنونهم الشعرية، ولكنة آثر بحورا بعينها في التعبير عن تجربته، بل فاضل بين البحور التي اختارها للإبانة عن تجربته أو إظهار ما يعتمل في وجدانه.

فقد وظَّف من البحور تسعة أبحر، جعل البحر الطويل في مقدمتها؛ بما له من مكانة في أشعار السابقين، إذ إنهم قد نظموا عليه ما يقرب من ثلث الشعر العربي وإنه " الوزن الذي كان القدماء يؤثرونه على غيره، ويتخذونه ميزانا لأشعارهم ولاسيما في الأغراض الجدية الجليلة الشأن، وهو لكثرة مقاطعة يتناسب مع حالة اليأس والجزع لذا يتخير الشاعر وزناً طويلاً يصبُّ فيه أشجانه للتنفيس عن حزنه وجزعه "(١)، وليس بين بحور الشعر ما يضارع الطويل فهو" ألطف نغما، وأطلق عنانا، وأرحب صدرا من باقي البحور"(٢)

ولعل ذلك متحقق في قول الشاعر وهو ينعى حياته بين قومه، فيترجم عن غربته النفسية بأبيات من بحر الطويل فيقول:

---

(٢) – السابق ص ٨ – ٩.

(١) – السابق ص ١٩١ يتصرف.

(٢) – المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ج ١ ص ٣٦٢ عبد الله الطيب المجذوب ط دار الفكر بيروت.

سَئِمتُ حَيَاتي بَيْنَ قومي لأَنَّهُمْ   أَجـانبُ عَنِّى بالهـوى والمناقِبِ
وكيفَ يعيشُ الحرُّ ليثاً وحَــوْلُـه   ثَعَالبُ ترجُو الرِّزقَ عند الثعَالبِ[3]

ثم يأتي . في ترتيب الشاعر . بحر "الكامل " وهذا البحر " أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات وفيه لون خاص من الموسيقي يجعله، إن أريد الجد، فخماً جليلاً مع عنصر ترنمي ظاهر، ويجعله إن أريد به الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة حلواً مع صلصلة كصلصلة الأجراس ونوع من الأبهة يمنعه من أن يكون نزقاً أو خفيفاً شهوانياً، وهو بحر كأنما خلق للتغني المحض سواء أريد به جدٌ أم هزل، ودندنة تفعيلاته من النوع الجهير الواضح الذي يهجم علي السامع المعني والعواطف والصور حتى لا يمكن فصله عنها بحال من الأحوال "[4].

ونجد الشجن الشعري في بحر " الكامل " وهذه العاطفة الفياضة عندما يخاطب الشاعر الطائر ويوازن بين حالته وحالة الطائر الذى يبكى؛ لأن عشه خلا من أفراخه، وذلك عندما يقول:

يا طـائراً يَبْكِـي عَلَى   وَكْـرٍ مـن الفرخِ خَلَا
نَثَـرتَ قَلْبــي مِثْلَمـا   نثرتَ قشَّاً في الفلا
يا ليتَ لـي إلفـاً لكي   أسْلـو وأَبنـى منزلا
وَا حَسْرتِيِ في غربتِي   لم يبقَ لي إلفُ وَلَا.....؛؛[1]

ثم يأتي في المرتبة الثالثة بحرا " البسيط والرمل "، وقد استخدمها الشاعر في التعبير عن محنته بنسبة واحدة، ومع أن بحر البسيط والرمل كانا يحتلان المرتبة الثانية بعد الطويل، إلاّ أن بحر البسيط قلت نسبة شيوعه عند الشعراء

---

(٣) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ٤٢٠.
(٤)– المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ج ١ ص ٢٤٦.
(١) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ٤٥٣.

المحدثين، وقد وظَّفَهُ الشاعر في التعبير عن أشجانه وأحزانه وبث من خلاله عواطفه، وذلك عندما يساوي الفراق والبعد عن الأهل والوطن بالموت، وذلك من خلال استخدامه لبحر البسيط في قولة:

ما الموتُ إلَّافراقُ الأَهْلِ والوطنِ ... ياليتني لم أَكُنْ والبيْنُ لم يَكُنَ
كَمْ من حَبِيبٍ أَرانِي اللِّينَ في حَجَرٍ ... وأَيُّ قَلْبٍ لِدَمْعِ الوجدِ لم يَلِنِ
أَوْدَعْتُه نِصْفَ رُوحي يَوْمَ ودَّعني ... والنِّصفُ باقٍ معي للهمِّ والحزنِ
والأَرضُ آسفةٌ والشمسُ كَاسفةٌ ... وبهجةُ الرَّوضِ فيها وحشَةُ الدِّمَنِ
كأنَّما الكونُ في ثَوْبِ الحدادِ بَدَا ... لمَّا رأَى الرُّوحَ تأْبَى صُحْبَةَ البَدنِ[٢]

وبحر الرمل " قد وجد عناية في الشعر الحديث، حتى أصبح الآن يحتل المرتبة الثانية بين أوزان الشعر؛ وذلك لأن " فاعلاتن، وفعلاتن " كلاهما جميل جيد تستريح إليه الآذان وتستمتع بموسيقاه "[٣]
وقد استخدم الشاعر من مجزوء الرمل قوله:

كَيْفَ نَفْسِي تَسْتَرِيحْ ... بَيْنَ أَمْوَاجٍ ورِيحْ
في رُبَى لبنانَ أَهْلِي ... وأَنَا وحْدِي أَسِيحْ
أَيُها الليلُ لماذَا ... أَنْتَ بالنجم شَحِيحْ
ِمثْلمَا أثْقَلْتَ قَلْبِي ... أَثْقِلِ الجفنَ القرِيحْ[١]

ثم يأتي كُلُّ من بحر " الوافر والسريع والمتقارب " عند الشاعر بمنزلة واحدة، وهذه البحور تختلف مكانتها ونسبة شيوعها في الشعر الحديث، فنجد نسبة شيوع بحر "الوافر" في الشعر القديم ٨ % [٢] علي الرغم من أنه بحر سريع النغمات

(٢) – السابق ص ٤٣٢.
(٣) – موسيقى الشعر ص ٨٦ – ٩٠ بتصرف.
(١) – ديوان لأبي الفضل بن الوليد ص ٤٢٤.
(٢) – موسيقى الشعر ص ٩٤.

متلاحقها وهذا يتطلب من الشاعر أن يأتي بمعانيه دفعاً دفعا، وأحسن ما يصلح هذا البحر في الاستعطاف والبكائيات، وهل شعر الغربة والحنين إلاَّ بكاءً وحنين وأنين واستعطاف ؟؛؛ والشاعر ترجم عن هذا الحنين في قوله:

وَلَيْلَ ذكَرْتُ في الحمراءِ أَهْلِي ... فَذُبتُ إلى مغانِيهِمْ حَنِينَا
وَبتُّ أُسائِلُ الأَرْواحَ عَنْهُمْ ... وأَنْشُقُ طِيبَهُنَّ وتَنْشُقِينا
وللأَمْوَاجِ حَوْلَيْنا هَدِيرٌ ... يُعِيدُ لنا وِدَاعَ الرَّاحِلينا(٣)

ثم يأتي بحر " السريع " وهو " من أقدم بحور الشعر العربي، غير أن ما روى منه في الشعر القديم قليل، ثم قلت نسبة شيوعيه في شعرنا الحديث، وأصبح الشعراء ينفرون منه ومن موسيقاه، وذلك لقلة المنظوم منه، وأغلب الظن أن هذا البحر سينقرض مع الزمن " (٤) ومنه قول الشاعر:

يا خاتماً يلمعُ في اصبعي ... أشْرَقْتَ كالنجمِ على البلقعِ
كُنْتَ لأميِّ ثم أصبحت لي ... فإنْ أَمُتْ في البُعدِ تُدْفَن معي
آنستني في وحشتي ... وأنت في الأصبع و الأضلعِ(١)

ثم يأتي بعد ذلك بحر " المتقارب " وهو بحر مضطرِّد التفاعل منساب، طبلي الموسيقى، ويصلح لكل ما فيه تعداد للصفات.... والناظم فيه لا يستطيع أن يتغافل عن دندنته، فهي أظهر شي فيه(٢) ومنه قول الشاعر:

أتُضْمِدُ جرحاً وتَمْسَحُ دمعاً ... وترجو من الدهر عوداً وجَمْعَاً
وتلك الحزينةُ فارقتُها ... و لم يُجْدِ طُولُ اغترابِك نَفْعاً
فوا حسرتى هل أعودُ وهل ... أَرَى لقيودِي الثقيلةِ قَطْعَاً(٣)

---

(٣) – ديوان أبي الفضل بن الوليد ص ٢٧٠.
(٤) – موسيقى الشعر ص ٩٠ يتصرف.
(١) – الديوان ص٤٤٥ .
(٢) – المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ص ١١٢ بتصرف.
(٣)– الديوان ص٤٤٦ .
(٤)– الديوان ص٤٥٢ .

ثم يأتي بحرا " المنسرح والخفيف " ونسبة شيوعهما في غرض الغربة والحنين عند الشاعر واحدة، وهما في المرتبة الأخيرة بالنسبة للأبحر التي تقدمت عليهما ومن بحر المنسرح قول الشاعر:

أَكُلَّما البرقُ في الدُّجى لمعا شَاقَ فؤاد إلى الحمى نزعا
ذاكَ فؤادٌ رقَّتْ عواطـــفُهُ ومازال بالشرق هائِماً وِلـعا
يصبو ويهفو لكنْ بلا أمـــلٍ تالله ماكان أقبحَ الطَّمــعا
كم طـــــائرٍ الفه عيه بلى وكم غريبٍ نأي وما رجعا(٤)

وباقي البحور أهملها الشاعر ولم ينظم عليها في هذا الغرض، وربما نظم عليها في بقية الأغراض الأخرى، إذ إن نسبة شيوعيهما في الشعر العربي بصفة عامة قليلة، وفيما يلي جدول يوضح نسبة استخدام الشاعر للبحور الشعرية التي وظفها في شعر الغربة والحنين.

م	البحر	المجموع الكلي	عدد الأبيات	النسبة
١	الطويل	١٢٨٠	٨٧٨	%٦٨.٥٩
٢	الكامل	١٢٨٠	١٩٤	%١٥.١٦
٣	البسيط	١٢٨٠	٩٧	%٧.٥٨
٤	الرمل	١٢٨٠	٧٩	%٦.١٧
٥	الوافر	١٢٨٠	٨	%٠.٦٣
٦	السريع	١٢٨٠	٨	%٠.٦٣
٧	المتقارب	١٢٨٠	٨	%٠.٦٣
٨	المسرح	١٢٨٠	٤	%٠.٣١

٩	الخفيف	١٢٨٠	٤	٠.٣١%

ومن خلال ما تقدم نرى أن بحر " الطويل " تفوق علي البحور الثمانية الأخرى التي نظم عليها الشاعر، ونسبته منفرداً تفوق نسبتهم في عدد الأبيات، ومن هنا يتبين مدى عناية الشاعر بهذا البحر وتأثير أنغامه وأوزانه، وسيطرتها علي عقل الشاعر، فقد وجد الشاعر في هذا البحر ما يشفي نفسه، ويترجم عمٌّا في أعماق قلبه، ولم يكن هذا بغريب علي بحر الطويل، لأن أكثر من ثلث الشعر العربي أتى علي وزنه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لوحظ أن عدد القصائد التي جاءت علي وزن الطويل تمثل ٥٠% من المجموع الكلى، فمجموع القصائد الكلى أربعون قصيدة، منها عشرون علي بحر الطويل، وسبع قصائد على وزن الكامل، وأربع قصائد على وزن كل من الرمل والبسيط، وقصيدة واحدة على باقي البحور الأخرى " الوافر، السريع، المتقارب، الخفيف، المتسرح٠

?لمبحث ?لثالث
?لقافية - ??لمعجم ?للغو ? لشعر ?لغربة ??لحنين

??لا: ?لقافية:

وهى عبارة عن "عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يُكَوِّن جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمي بالوزن "(١).

والروي أحد حروف القافية، ولذا فلا يكون الشعر مقفى إلاَّ به، وهو صوت تنسب له القصيدة، ويتكرر فيها من بدايتها حتى نهايتها (٢)، ومعظم حروف الهجاء يصلح أن يقع روياً إلاَّ أنها تختلف في نسبة شيوعها، فقد قسمت حروف الهجاء التي تقع رويا إلي أربعة أقسام حسب نسبة شيوعها في الشعر العربي.

١ – حروف تجئ رويا بكثرة وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار العرب وهي " الراء، اللام، الميم، النون، الباء، الدال، السين، العين ".

٢ – حروف متوسطة الشيوع وهي: القاف، الكاف، الهمزة، الحاء، الفاء، الجيم.

٣ – حروف قليلة الشيوع وتلك هي: الضاد، الطاء، الهاء، التاء، الصاد، الثاء.

٤ – حروف نادرة في مجيئها روياً وهي: الذال، الغين، الخاء، الشين، الزاي، الظاء، الواو(٣).

---

(١) – موسيقى الشعر ص ٢٢٦.

(٢) – انظر السابق ص ٢٤٧.

(٣) – السابق ص ٢٤٨.

وشاعرنا لم يخالف السابقين في بناء قصائده الشعرية علي نفس حروف الروي التي بنوا عليها قصائدهم، بل إنه التزم بمنهجهم التزاماً حرفياً، ويبدو أن الالتزام مرجعه الأصلي إلى كثرة قراءات الشاعر واستظهاره لشعر الفحول من السابقين، فإذا ما نظرنا إلى قصائد الشاعر في تجربة " الغربة والحنين " وجدناه يبني أكثر قوافيه على روى " الراء " وهي من الحروف التي تحدث رنيناً وتردداً في السمع، ثم جاءت روياً بعدها في الترتيب " الباء، والميم، والدال، واللام "، وهذه الحروف التي وقعت روياً تمثل عند الشاعر أكثر قصائده، ثم تأتي في المرتبة الثانية " العين، والياء، والكاف، والحاء، والنون، والهمزة، والجيم " على الترتيب، وإذا نظرنا إلى هاتين المرتبتين وجدنا الشاعر لم ينظم قصائده إلاَّ على الحروف التي شاع استعمالها روياً في الشعر العربي بكثرة، أو الحروف التي جاءت متوسطة الشيوع، ولم ينظم قصيدة واحدة على روى الحروف قليلة الشيوع أو نادرة الشيوع، وهذا إنما يدل على أن الشاعر يتمتع بسليقة عربية سليمة، فسار على هدى السابقين ونفر مما نفروا منه، وعلى هذا يمكن القول بأن الشاعر في ترجمته عن تجربته لم يجاف طبع السابقين، ولم يتجاوز طريقهم في توظيف حروف بعينها، وألفاظ بعينها للتعبير والإفصاح عن هذه التجربة الأليمة التي عاناها الشاعر في غربته، ومن يقرأ شعره يتكشف من خلاله هذه النفس المعذبة اليائسة الحائرة في متاهات التيه التي لم تخط لها طريقاً تسير فيه على هدى مستقيم.

وقد نوَّع الشاعر في قوافي شعره بين الإطلاق والتقييد، فأكثر قصائده في تجربة " الغربة والحنين " مطلقة، وهذا يتناسب مع طبيعة الفن الشعري الذي عبَّر عنه الشاعر.

واستخدم القافية المقيدة في ثلاث قصائد فقط، منها قصيدة على بحر الطويل ورويها راء ساكنه وعدد أبياتها سبعة وستون بيتاً، وقصيدتين على بحر " الرمل " الأولى منهما رويها راء ساكنة وعدد أبياتها ستة وثلاثون بيتاً، والثانية على روي الحاء وعدد أبياتها ثلاثة عشر بيتاً، أمَّا باقي قصائده فمطلقة وعددها سبع وثلاثون قصيدة تتراوح حركة الروي فيها بين الطويلة والقصيرة، وذلك تبعاً للنفس الشعري.

ثانياً: المعجم اللغوي لشعر الغربة والحنين

إن لغة شعر الغربة والحنين عند الشاعر بصفة عامة سهلة يسيرة واضحة؛ لأنَّ غاية الشاعر المغترب هي التعبير عمَّا ألم به من وحشة وعذاب وشوق إلى الأهل والأحبة والوطن، لذلك ابتعد عن الصنعة والتكلف والغموض، ومن خلال استقرائي لشعر الغربة عند الشاعر اتضح لي أنه استعمل ألفاظاً تتناسب مع المعاني التي طرقها، والمقاصد التي قصدها، لذا كان له معجم لغوي خاص، وربما لا أكون مغالياً إذا قلت إن أكثر هذه الألفاظ، وتلك المفردات التي وظَّفها الشاعر ضمن نصوصه الشعرية تدور حول ألفاظ " بكاء، وداع، زفير، عبرة، حضرتم، غبتم، نلتقي، تذكرت، ربوع، معكم، نواح، اعوال، غربة، كبدي، نحنّ، تحسراً، هاج، عواطفي، صبر، تذرف، زفَّارة، ترحال، تذبل، نفحة، خطئ الأسفار، البحر، أرنو، جوَّال، الروح، الأمواج، الليل، الركب، الشوق، أحنَّ، الجناح، أهلي، الوطن، النوى، الجرح، آمال، النأي، الفراق، الدهر، الفقر، الغني، الخير، الشر، قلبي، غصني، زهري، العاشق، المزهر، الحقل، الغاب، المنفى، الغريب، لهفي، يا طائراً، الموت، ودعتني، يا أمَّ، بني، ضاع، أصبو، أناجي، السائح، طيفها، المأوى ".

وهذه المفردات وغيرها شاهدة على أن الشاعر عنده حصيلة لغوية مكنته من التعبير عن تجربته، ووضعها في الصورة اللائقة بها بين التجارب الأخرى، ثم الإفصاح عمَّا يجول في خواطره بألفاظ تتواءم وتتناسب مع عاطفته التي ترجم عنها، وهذا كله يحتاج من الشاعر إلى اطلاعات متعددة، وثقافات متنوعة، وعاطفة جياشة، وشعور صادق، وحسٍ مرهف، وشاعرنا تتوافر عنده كل هذه الأدوات التي ساعدته على الإبانة والإفصاح، ولذا جاءت ألفاظه عذبة في اختيارها، متآلفة في بنائها، منسجمة في عباراتها، يكاد يأخذ بعضها رقاب بعض، والشاعر في كل ذلك ينظر في كثير منها إلى تعبير القدماء في غير تكلف أو ابتذال.

الخاتمة

لا شك أن شعر الغربة والحنين في أيِّ عصر من عصور الأدب هو نتاج شعور وجداني، ولن ينتهي هذا الشعور ما دامت الحياة تنبض بها قلوب الشعراء في كُلِّ زمان ومكان، وشاعرنا " أبي الفضل بن الوليد " عبَّر عن هذا الوجدان في قالب شعري مشحونٍ بالأسى والألم والشجن من خلال شعر الغربة والحنين عنده، والذي قمت بدراسته وخلصت منه إلى بعض النتائج والتي:

– منها: أن إجادة الشاعر في شعر الغربة والحنين جعلته يجيد في صياغته الفنية التي لا تكلف فيها ولا تعمُّل، والتي يبدو عليها نوع من العفوية والصدق الفني في التجربة الشعرية والتعبير الوجداني.

– ومنها: أن شعر الغربة والحنين عبَّر عن الدوافع والأسباب التي جعلت الشاعر يفارق وطنه، ويهاجر منه إلى أوطان أخرى متعددة.

– ومنها: ان الشاعر صوَّر بصدق نفسيته عندما أراد أن يركب الأخطار قاصداً الوطن الجديد عَلَّه يحقق بعض الأماني، بيد أنه اصطدم بمشاكل عديدة كانت سبباً في تحطيم أمنياته، فصور شعوره، في حين أنه كان معتقداً أنه سيجد في أرض الغربة كل ما يصبو إليه من حياة حُرَّةَ كريمة، وما تتوق إليه نفسه من رخاء مادي، فإذا به يصطدم بحياة غليظة كل ما فيها العذاب والحرمان، بل الاحتقار والازدراء الذي أحسه في أعماق نفسه.

– ومنها: أن الشاعر صور حُبَّه وهيامه بوطنه، وعبَّر عن إحساسه بالضيق والغربة، كما أعرب في الكثير من قصائده عن رغبته في العودة إلى وطنه حتى أصبحت العودة أمنية غالية عنده يريد تحقيقها.

– ومنها: أن شعر الحنين عنده تمكن فيه مشاعر الاشتياق إلى الذكريات المختلفة ولا سيما ذكريات تعلقه بأمه وأخته ومحبوبته وأصدقائه.

– ومنها: أن شعر الغربة والحنين عند الشاعر يتسم بالاضطراب والقلق النفسي الذي لا حدود له.

– ومنها: أن الشاعر وظَّف كثيراً من وسائل الطبيعة للتعبير عن تجربته الفنية وادمجها داخل نفسه على عادة الشعراء الرومانسيين.

– ومنها: أن الشاعر وازن في شعر الغربة والحنين بين ماضيه الحافل بالحياة الوادعة الهادئة الناعمة، و حاضره المحتوى على اللوعة والاشتياق.

– ومنها: أن الشاعر في غربته النفسية أحس بالملل والسأم؛ وذلك لعدم مقدرته على التكيف والانسجام النفسي مع الواقع الذي يعيشه، لذا أحسَّ في أعماق نفسه أنه يعيش بجوارحه وأفكاره وعواطفه وحده منعزلاً دون أن يشاركه أحد في هذه العواطف والمشاعر.

– ومنها: أن البحث أعطى صورة موجزةً عن حياة الشاعر، وأشار إلى بعض الملامح الحياتية والنفسية من خلال أشعاره.

والله أسأل التوفيق والسداد والعون
إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه
الباحث ...،

المصادر والمراجع

١ – أدب الغرباء لأبي الفرج الأصفهاني تحقيق د. صلاح الدين المنجد ط دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٢م.
٢ – أدبنا وأدباؤنا المهاجر الأمريكية جورج صيدح ط دار العلم للملايين بيروت.
٣ – الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي تحقيق عبد الرحمن بدوي ط دار القلم الكويت ١٩٨١م.
٤ – الإعلام لخير الدين الزر كلى ط دار العلم للملايين بيروت.
٥ – تاج العروس للزبيدي.
٦ – التذكرة الفخرية للصاحب بهاء الدين المنشئ الإربلي تحقيق د. نوري القيسي وآخر ط المجمع العلمي العراقي ١٩٨٤م.
٧ – الجامع لأحكام القرآن "تفسير القرطبي" تحقيق عبد الرازق المهدي ط لدار الكتاب العربي .
٨–الحنين إلى الأوطان للجاحظ ط دار الرائد العربي بيروت ١٩٨٣م.
٩ – الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي: محمد إبراهيم حور. ط دار نهضة مصر.
١٠ – ديوان الإمام الشافعي ط دار الإسراء للنشر والتوزيع عمان الأردن تحقيق محمود ربيع.
١١ – ديوان امرئ القيس تحقيق حنا الفاخوري ط دار الجبل بيروت.
١٢ – ديوان أبي تمام تحقيق عبد الوهاب عزام ط دار المعارف ١٩٦٥م.
١٣ – ديوان أبي فراس الحمداني د. سامي الدَّهان ط بيروت ١٩٤٤م.
١٤ – ديوان أبي الفضل بن الوليد ط دار الثقافة بيروت ١٩٨١م.
١٥ – ديوان المتنبي بشرح العكبري ط دار المعرفة بيروت ١٩٧٨م.
١٦ – روح الاجتماع تأليف / جو ستاف لوبون ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا – ط المطبعة الرحمانية القاهرة.

١٧ – الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس د. محمد مجيد السعيد ط دار الرشيد للنشر ١٩٨١م.
١٨ – الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
١٩ – طوق الحمامة في الألفة والآلاف لابن حزم تحقيق صلاح الدين القاسمي ط دار
بو سلامة للطباعة والتوزيع والنشر ١٩٧٩م.
٢٠ – علم البيان د. عبد العزيز عتيق ط دار النهضة العربية بيروت.
٢١ – علم المعاني د. عبد العزيز عتيق ط دار الآفاق العربية بيروت.
٢٢ – العمدة لابن رشيق تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط دار الجبل بيروت.
٢٣ – قصائد لا تموت مختارات ودراسات محمد إبراهيم أبو سنة ط دار غريب القاهرة.
٢٤ – الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي تحقيق د. يحيى مراد ط مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.
٢٥ –الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف أبي القاسم جار الله
محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ط دار المعرفة- بيروت- لبنان٠
٢٦ – لامية العرب للشنفري ط دار الحياة بيروت.
٢٧–لسان العرب لابن منظور.
٢٨ – مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه كنز العمال المكتب الإسلامي للطباعة والنشر دار صادر بيروت ١٩٥٧م.
٢٩ – المحاسن والمساوئ للشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي ط دار صادر بيروت.
٣٠ – محاولات في دراسة اجتماع الأدب د. نوري حمودي القيسي ط وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٧م.

٣١ – مدامع العشاق د. ذكي مبارك.
٣٢ – المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها د. عبد الله الطيب المجذوب ط دار الفكر العربي بيروت.
٣٣ – مسند الشهاب تأليف: محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي حققه وخرج أحاديثه: حمدي بن عبد المجيد السلفي ط مؤسسة الرسالة – بيروت ط ١٤٠٥ – ١٩٨٥م٠
٣٤– موسيقى الشعر د. إبراهيم أنيس ط دار نهضة مصر.
٣٥ – معالم جغرافية الوطن العربي د محمد محمود الصيَّاد ط دار النهضة العربية بيروت٠
٣٦– معجم البلاغة العربية د. بدوي طبانة ط منشورات جامعة طرابلس كليةالتربية.
٣٧ – المعلقات العشر بشرح الزوزني ط دار الحياة بيروت.
٣٨ – النصف الأول من كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن سليمان الأصفهاني، نشره لويس نيكل البهيمي ط الآباء السيوعبين بيروت ١٩٣٢م.
٣٩ – وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية د. نوري حمودي القيسي ط مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر ١٩٧٤م.
٤٠ – الوطن في الأدب العربي إبراهيم الإبياري ط دار القلم القاهرة ١٩٦٢م.

الدوريات

١ – المجلة العربية: مقال الحنين عند العرب رابح لطفي جمعة عدد ٣ السنة الرابعة عام ١٩٧٩م.

فهر ??لموضوعا ?

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
المقدمة	٦٨٥
التمهيد	
المبحث الأول: أبو الفضل بن الوليد حياته وآثاره	٦٨٧
المبحث الثاني: مفهوم الغربة والحنين ودواعيها	٦٩٢
الفصل الأول	
الغربة والحنين في شعر أبي الفضل بن الوليد	
المبحث الأول: الغربة المكانية أو الوطنية	٦٩٩
المبحث الثاني: الغربة النفسية	٧٠٩
المبحث الثالث: الحنين وملامحه	٧١٣
الفصل الثاني: الدراسة الفنية	
المبحث الأول: الصورة الشعرية والظواهر الأسلوبية في شعر الغربة والحنين	٧٢٤
المبحث الثاني: الموسيقى الداخلية والخارجية	٧٤٤
المبحث الثالث: القافية – المعجم اللغوي في شعر الغربة	٧٥٩
الخاتمة	٧٦٢
فهرس المصادر والمراجع	٧٦٤
فهرس الموضوعات	٧٦٧